سأقصّ شَعري..

رحمة حجة

أنجزت 2015

عُدّلت 2017

نُسخة إلكترونية فقط- واشنطن 2017

المشاع لا يُهدى

قائمة أغان أرشحها للاستماع أثناء القراءة

- وعيونها، سناء موسى
- بتناديني، دنيا مسعود
- شعرك دهب، باسل زايد
- سهرة حب، فيروز
- بيت صغير بكندا، فيروز
- غير انت، سعاد ماسي
- لو، أليسا
- أتحبني بعد الذي كان، كاظم الساهر
- بلا رفيق، ميادة بسيليس
- شخصية عنيدة، أصالة
- عمري ما استنيت حد، روبي
- أنا اتوب عن حبك، الشيخ إمام
- يمكن لو، تانيا صالح
- Sway, Dean Martin
- All of me, Jhon Legend
- The way you look tonight, Frank Sinatra
- La Foule, Edith Biaf

أو أي من أغانيك المفضلة لأم كلثوم، وربما قد تنهي القراءة والست لا تزال تغني ☺

رجل الهاتف

"عالقةٌ في التوبة" هكذا قالت لـ"السر"، ومشت .

علت في أنفاسها مشاعر جديدة، أججها الصمت بينهما، لكنها لا تقوى على َدوخة القدمين، ولا على قُبلة تعيد إليها وعيها، أو ربما تفقده كليًا.

كان عليها الخطو سريعا حتى نهاية الممر الذي تفوح منه رائحة الخبز، أمام العمّال غير الفضوليين، على غير العادة .

وفي زمن واحد، كان "رجل الهاتف"، هذا الذي لم تلتقه أكثر من مرتين خلال أربعة أعوام، يأتيها في الموعد المناسب دومًا لنداء الرغبة، وللفراغ الذي يدوّي في قلبها.

كانت تخافه، لكنها أكثر.. تخاف من نفسها، التي سمحت له يومًا بتقبيل شفتيها وثدييها دون أدنى رفض، كأنها اعتادت، أو تجمدت أمام تكسّر مرآتها.

لم تكن قبلتها الأولى تشبه ما رأته في الأفلام الأميركية أو في مقاطع الفيديو القصيرة التي بحثت عنها مرارًا، وهو لم يمنحها ذلك الشعور الذي انتظرته أو توقعته في تلك القُبلة، ربما لأنه أدمن مشاهدة "البورنو" أكثر من أفلام الحب.

لن تنتظر الشرقي حتى ينسلخ عن غروره. قررت المغامرة، ليس لأنها تشعر بحب نحوه فقط، إنما لتنجو بنفسها من احتمالات أخرى بغيضة مع الثاني، إذ أدت العلاقةُ بينهما إلى شعورها بأنها خذلت الله، وهو الذي كان يظنها أقوى من أن يحصل ذلك. لكنها ظلت تسأل: أين كان الله حينها؟ واعتقدت أنها ستجد الله مع

الأول، فركضت نحوه .

بالفعل كان يشبه الله، في تركها على ناصية الاحتمالات، واختبار قدرتها على خوض تعاستها وحدها، في الوقت الذي ينشغل بمواعدة أخريات يناور وإياهن طاقتَه على الاكتفاء من كل النساء قبل أن يجف حلقه في كلمة لها تكفيها!

"عالقةٌ في التوبة" هكذا قالت لـ"السر"، ومشت.

أعلنت غضبهَا؛ وقالت: يئستُ منك ..

"معك، أشعر أن جثتي تطفو منتفخةً بالخيبة! أو لست من أهداني كتابًا، أشرت فيه لعبارات عدة بحبر أحمر، كان أبهاها: الإحساس بالدفء أهم من الدفء؟ يا حبيبي أنا لا أحسّ هذا الدفء ".

يقول: "تسرّعنا.. أنا لا أتقن الحب "!

تبتسم. تضحك. تقهقه. ويد الجنون تمسها، وهو على مقعده المريح، يعتني بفكه كي لا يحتك بصخب الفراق .

لا شيء تفعله، سوى فتح صنبور الأغنيات في هاتفها، ثم الرقص. تتثنّى. تتعرّى من الدمع. تفكر بأن لحظة بذيئة كما تلك، تستحق كل هذا الابتذال.. " .. وتكمل التلوّي على وقع الألحان المسروقة والمكررة !

"عالقة في التوبة" هكذا قالت لـ"السر"، ومشت .

"رجل الهاتف جاهز، فهذه فرصته" تقول، ثم تضغط الأرقام التي حفظتها بعد اكتشافها أنها تحمل تاريخي نكبة ونكسة البلاد، وأضحكتها المفارقة .

حددت معه موعدا للانتقام، وهو لم يتردد في العودة رغم أنها تخلت عنه بكلمتين من أجل الأول "أنت لا تناسبني".. تفكر "لماذا يتردد؟ هو يريد الجسد. ولا مشكلة، إن بقي القلب مع سواه"، ألم يقل كاتب يوما، إن "المرأة تستطيع النوم مع رجل غير زوجها دون أن ينقص من إخلاصها شيء؟ "!

كانت كلمة الإخلاص بالنسبة للأول تدور في فلك "اشتعال اللحظة بين اثنين لا يلغي حب أحدهما لثالث بعيد"، وحين سمعتها منه، ظنته ملحدا بالحياة، ولكن الآن، صارت تفهم المعنى، لا بل أكثر، صارت تشعر به.

"عالقة في التوبة" هكذا قالت لـ"السر"، ومشت .

لم تبكِ حين مات

"أففت متى سأتعلم وضع طلاء الأظافر دون تجاوز حوافها؟". تتذمر أبريل في صباح صيفي، لم تبلغ الساعة فيه الثامنة والنصف، ودوامها يبدأ تمام العاشرة، تستغل الوقت وتشرب كوبًا صغيرًا من عصير الجزر.

تنادي على أختها، لتساعدها في حمل أغراضها حتى نهاية الممر المؤدي إلى باب البيت، وتفتح لها إياه خوفًا من أن تخدش المفاتيح سطح "المناكير"، وتضحكان على هذا الموال الصباحي الذي لا ينتهي .

تنظر الوقت "جميل، تبقى لي ربع ساعة"، ثم تستقل الباص السريع الذي يربط بين بلدتها أم الزينات وحيفا، حيث مقر صحيفة "يوميات الشمال"، التي تعمل بها .

كعادتها، تظل أبريل محدقة بالشجر المترامي على طرفي الشارع، كما العمران الذي بدأ بالتصاعد .

المكتب كما هو، وزملاؤها متوزعون أمام حواسيبهم، بعضهم يجتهد في تحرير الأخبار، وآخر يلملم ما تيسر منها عبر شبكات التواصل الاجتماعي مثل "تويتر" و"فيسبوك"، كما ينقسمون ويتكاملون بين النسختين الإلكترونية والمطبوعة للصحيفة .

كل شيء كالمعتاد، حتى نظرات شاك، المتجهة إلى بعض تفاصيل جسدها الممتلئ بعناية، الذي يحتضن فستانًا يختلط لون "النبيذ" الطاغي عليه مع حزام أسفل الصدر مباشرة بلون وردي، ويندلق التصميم الفضفاض حتى الرأس الوحشي لكل من ساقيها .

هذه النظرة المعتادة، تقابلها باقتراب صباحي لذيذ منه، وتهمس أمام ارتباك شاك بضحكة مراوغة "ما حال الأخبار؟ أم أنك انشغلت عنها اليوم أيضا بلعبة "أنغري بيرد" التي أخذت عقلك؟"، بينما يظل مشدوهًا أمام القنبلة الموقوتة أمامه، يتناول فنجان القهوة المحاذي له، وينظر لأبريل ثم يقول بنبرة تشبه الثقة "صباحك رائع، والأخبار كما ترين لا تتغير.. حوادث سير، زواج، نشاطات بلديات، وتحركات رئيس الجمهورية، وصفقات اقتصادية بين ربح وخسارة، وهكذا".

تبتسم أبريل، وتزيح شعرها - الذي تدلّى قبل قليل على كتف شاك- إلى خلف أذنيها، فينكشف قرطا البرونز اللذان يرتطمان بعنقها، وتعود لمكتبها، ثم تتسمر أمام الحاسوب، لتقوم بدورها في

تحرير الأخبار التي ترد الصحيفة من مراسليها في شمال فلسطين (عكا، بيسان، طبريا، حيفا).

في أخبار عكا، دائما حين تطالع "تربيخا" في العناوين، يتسارع نبض قلبها، حيث يقطن قاسم، الذي تركها قبل عام فريسة لتأويلات كتمانه أسباب الفراق، الشيء الذي أبدل بحبه كرهًا عميقًا، فهي تظن أنه سبب كل حدث سيء في حياتها .

اسم "قاسم" الذي تترصده بين حوادث السير والحريق وانهيار المباني في صفقات عقارات فاسدة، لم يأت بعد لتطمئن، فهي تؤمن أن القدر سينتقم لها منه، ليتركه مشوهًا في إحدى المستشفيات .

تسأل الزملاء "هل من أولوية لخبر ما كي أباشر في تحريره"، لا يجيب أحد، فتفهم أن الصمت علامة "النفي".

الساعة تدق الرابعة وسبعة عشر دقيقة من مساء يوم رتيب، يقول شاك ببرود "أبريل، انتبهي لخبر عن حادث سير في عكا".

تفتح الخبر ببرد أصابعها "عكا: مصرع 3 وإصابة خطيرة في شارع تربيخا- الكابري"، تكمل :

"عكا – يوميات الشمال: لقي ثلاث مواطنون مصرعهم إثر حادث سير بين مركبة خاصة وباص سريع على الطريق بين بلدة تربيخا ومدينة الكابري شمال شرق عكا .

وقالت مصادر طبية أن الضحايا هم: بارليف يتسحاق يعقوب (30 عاما)، وسليم مارون صليبا (26 عاما)، وقاسم مــ حــ مـ ود الـ َعباس ."....

تعود أبريل بكرسيها إلى الخلف، تحبس أنفاسها حين تتأكد من العُمر ".. قاسم محمود العباس (29 عاما)

إنه قاسم! نعم. مات .

تتجاوز الأخطاء النحوية، والمعلومات الناقصة في الخبر، تهذبه، وتشذبه، ليصبح جاهزا للنشر مع الصور المروعة المرفقة به، فسياسة صحيفتها لا تمنع نشر هذا النوع من الصور، إذ يعتقد رئيس التحرير أن الرعب فيها أفضل وسيلة لتنبيه الناس إلى أخطائهم في قيادة المركبات.

5:00 مساءً- تعيدُ أبريل توضيب نفسها وحقيبتها، وتجددّ عطرها، وتمضي إلى البيت .

المشهد يبدو مختلفًا في نافذة العودة، أجزاء من قميص قاسم "الكروهات" الذي ارتداه في موعدهما السابع في مقهى "إنت عمري" ويده المتدلية من سرير الإسعاف، عصير التفاح الذي شرباه سويًا وضحكا جدا حين لم يعجبهما طعمه، مفتاح الحياة الذي ما زال متدليًا على صدرها، منذ أهداها إياه يوم ميلادها قبل عامين، الرسائل المتبادلة بينهما التي لم تمحها من حسابها "الفيسبوكي"، وظلت كلمة "اشتقتلك" عالقةً منها دون رده... الصورة التي جمعتهما على شاطئ يافا. كلماته، كلماتها، صمته، صمتها، حزنه، حزنها، افتتانه، بالنساء في حضورها، تغيّبه عن مواعيد كثيرة بينهما، بكاؤها الذي لم يحرك أي شعور لديه، قصصها البائسة في صفحات التواصل الاجتماعي، كلام كثير كثير كثير.. طالما تذكرته في العودة، دون جدوى، لكن في ذلك الوقت كان "هو" حيًا، والآن مات. أيّ جدوى تُرجى من خيبة ناضجة بالأمل بعد الموت؟

طعم الغداء ملون بدم قاسم، والحلم الذي راودها مصحوب بصوت قاسم، والشمس التي أشرقت كانت وجه قاسم ..

تجهز أبريل نفسها ليوم عمل آخر، وتختار لونًا جديدا لطلاء الأظافر، وتضحك مع أختها عند نهاية الممر. وفي الطريق تفكر أثناء عبثها بمفتاح الحياة "متى سيتكلم شاك؟".

"ضحكتلي العروس"

"ياي ضحكتلي العروس". هكذا قالتها سلمى، بعينين مشدوهتين، وخدود تضيء فرحا، حين شدت ثوب والدتها أثناء تواجدهما في قاعة الأفراح، حيث حفل زفاف جارهم عامر، الذي تزوج فتاة من خارج القرية. عادت إلى البيت، ولا يسعها البيت، تريد مساحة أكبر، لترسم لوحة لا بل جدارية من السعادة، ولم تترك فردا من عائلتها حتى قالت له، فاليوم جدتها، وإخوتها ووالدها، وغدا صديقاتها في المدرسة الابتدائية، سينتشر الخبر كما رذاذ العطر تحمله الرياح، فهو ليس شيئًا عاديًا.. لقد "ضحكت لها العروس." مشت في الشارع مزهوة بنفسها، لاعتقادها بأنها لو لم تكن بهذه الأهمية والظرافة، لما ضحكت لها العروس. وقررت أنها حين تصادفها مرة أخرى، ستبادرها بالابتسام، وتخبرها بأنها تحبها! نعم تحبها...!

اليوم ستذهب والدتها لزيارة الجيران، لتبارك لهم زواج عامر، وأصرت سلمى على الذهاب معها، رغم أنها لم تتم واجباتها المدرسية، فاصطحبتها والدتها بشرط أن تكمل ما ترتب عليها فور العودة.

وحين جاءت العروس لتحيي الضيوف، مدت يدها للجميع إلا سلمى، فاستغربت! وظلت صامتة، وما فتئت تنظر إلى العروس، وهي لا تراها!! أخبرت والدة سلمى العروس بأن سلمى أحبتها، لأنها ضحكت لها أثناء الزفاف، فانشرح صدر سلمى انتظارا لتعقيب منها... لكنها ضحكت قائلة: هم الأطفال دوما، يتخيلون ويرسمون الأحلام!

فابتسمت لها الأم، لكن سلمى لم تبتسم، بل ارتسم الحزن في عينيها. وحين عادت إلى المنزل، هرعت صوب والدها وبكت في حضنه قائلة "اليوم ضحكت عليّ العروس !"

إمام المسجد

ارتدى عطر أحدهم الذي ما زال عالقا في القميص، متقمصا دور المجاهد في حذائه الضخم ذي اللون

الأسود، ومنتعلاً كل الشوارع التي مشى بها، والمياه الراكدة، حيث ضجت بها خطواته، ترتاح كفاه في جيبين احتويا نقودا لم يتح له فقره عدّها، في بنطال يبدو أنه كان أزرق غامقا في زمن مضى، لا يطأطئ رأسه إذا سأله أحدهم "من أين تشتري ملابسك عادةً؟"، حين يكون ردّه

- "لا أشتريها!".
- إذًا؟!
- يحضرها لنا إمام المسجد!

قليل من البحر.. لنلتقي!

ارتدت فستانَها الأزرق ذا العنق المتموج مع حزام الساتان الأبيض، وتعطرت من الزجاجة التي أهداها إياها في آخر لقاء بينهما، قبل شهر. وضعت قليلا من الكحل، كما يفضل هو .

تزينت بفضة الحلق الدائري، الذي يلامس شعرها المفرود بعناية على كتفيها. وأغلقت باب غرفتها كي لا تقطع استعدادها إحدى الفتيات الثلاث اللاتي تشاركنها الشقة في عمارة سكنية قرب الشركة التي تعمل بها محاسبة في رام الله .

فتحت "اللابتوب" بخفقانها المعتاد، الذي ينبهها لموعدها معه.

تتصاعد أنفاسها مع كل نافذة تفتح في الجهاز بدءا ب "مرحبًا" المرفقة مع شعار "Windows" مرورا بالمثلث الأصفر الذي يقف على صدر أيقونة الإنترنت أسفل يسار الشاشة. يتسللها الخوف من انقطاع التيار الكهربائي.

لم يعلن اتصال الإنترنت توافره حتى اللحظة، وعيناها لا تنفكان تنتظران الإشارة، فتسحب الأسلاك من مكانها، وتعيد وصلها.. تنظر يُمنة ويسرى، مداعبة خصل شعرها المنسدلة على وجنتيها .

تعود بنظرها إلى الشاشة، متأكدة من رحيل العلامة الصفراء التي تنبئ بخطب ما في الشبكة عادةً! تكتب اسمها وكلمة السر على نافذة "رسول الحياة" كما تحب ترجمتها من "live messenger" لتبحث الضوء الأخضر جانب اسمه، لكنها لا تجده !

بدأ الانتظار... عشر دقائق، خمسة عشر، عشرون.. تسوق التبريرات له في عقلها، وكلما زاد الوقت تحولت التبريرات إلى ظنون مزعجة "ربما نسي موعدنا.. لا يريد محادثتي؟ لا أذكر أنني قلت شيئًا أزعجه في محادثتنا الأخيرة قبل ثلاثة أيام! ربما بقي في عمله، لكن دوامه مصنع الجُبن انتهى منذ ساعة ونصف...! لكن لمَ لم يُهاتفني فأعذره؟ ربما أشغلته ابنة خالته الناصريّة التي استفز غيرتي بها! تعبت. كيف يَسمح للظنون بالتسرب إلي؟!

"سأغلق الجهاز، ولن أكلمه" تقول لنفسها.

لكنها لا تغلق الجهاز، بل تلهي نفسها بقراءة مواضيع متفرقة في مواقع إلكترونية مختلفة، وتنشغل بالتعليقات الساخرة في إحدى المنتديات، التي تشترك في عضويتها، بينما تغلي في قرارة

التأويلات مبقية "نافذة الحياة" مفتوحة بينما تظهر الإشارة الحمراء بجانب اسمها.

تذهب إلى المطبخ لشرب الماء رغم أن كأسًا ممتلئًا ينتظر ظمأها قرب سريرها! تعود.

الساعة تشير إلى "4:30" مساءً. وفجأة، يقفز اسمه على سطح الشاشة، معلنًا حضوره.

ستعلن وجودها بإنارة "الضوء الأخضر" أم لا؟ تفكر وتفكر وتتذكر أنه تأخر كثيرا، لكنها تسارع إلى المرآة، ترتب شعرها وتتأكد من أن الكحل لم يخذلها بعد، تتعطر من جديد، وتبتسم للمرآة، ثم تطفئ "الأحمر" الذي يعني الانشغال بلغة "الماسنجر". فيبادرها الحديث :

-تأخرت. أنا آسف جًدا!

- حقًا؟ لم أنتبه الساعة، لقد انشغلت بمشاهدة المسلسل مع الفتيات !

يبتسم على الجانب الآخر، فهو يعرفها جيدا ويستطيع ببساطة تخيّل كل ما جرى في انتظاره.

يقول: كنت أحضّر لك مفاجأة!

تشعر بالغبطة، لكنها تكتب ببرود، حيث لم تسامحه بعد:

- وما هي؟

يبعث طلبًا لمحادثة فيديو، فتستجيب، لكنها لا تراه، بل ترى البحر، وتسمع صوت الموج، ويسمعها مقطعًا من أغنية "بعشق البحر" لكن ليس غناءً "أنا بعشق البحر زيك يا حبيبتى حنون.. وساعات زيك مجنون ومهاجر ومسافر.. وساعات زيك حيران وساعات زيك زعلان"

ينكمش الدمع في حلقها، وتزدهر عيناها بشعاع الفرح، ثم يأتي هو، بعد هدوء منهما في حضرة هدير الموج، يُطل وجهه عبر الشاشة ليسألها عن رأيها، لكنها لا تعرف للحديث سبيلاً، تبكي وتضحك.. تسأله "متى قررت كل هذا؟

- حين رأيت في صوتك الشوق الكبير للبحر الذي لم تزوره في حياتك، قررت أن تكون محادثتنا القادمة على شاطئه.

هدأ البحر في جوفها بعد رؤيتها لبحر يافا، الذي لم تره إلا عبر الصور، بانتظار فرصة تسمح لها بلقاء حبيبها في قربه، وتتذوق سمكه الذي سمعت عنه كثيرًا، فلا بحر في رام الله، ولا سمك

طازج، والبحر الوحيد الذي يمكنها زيارته بلا إذن الجنود، ميت.

في المستقبل القريب

5:00 فجرًا

دون أي منبه سوى الاعتياد اليومي، تستيقظ أم نضال، تنظر إلى الساعة بعينيها الناعستين، ثم تلتفت إلى زوجها قربها، وتوقظه.

- قوم صلّي !

يصليان معًا "جماعة". وهذا حالهما منذ خمس وأربعين عامًا، مدة زواجهما. الشيء الذي لم تغيره الظروف، إلا من بعض الحوارات القصيرة، والشيب المستعر في شعرهما. تستعين هي بالحناء، بينما يرضى هو بالوقار الذي غطى طرفي رأسه، حيث اختفى شعره من المنتصف، دون بعض الشعرات اللاتي تَشكلن جسرًا رقيقًا بين الطرفين .

لا ينامان بعد الصلاة. حيث تتوجه أم نضال لإعداد القهوة، بلا سكر. تظل واقفة أمام "الغلاية" تنتظر ملامح الغليان، فتسرح بفكرها " يا ترى بعده نايم؟ ."

صوت فوران الماء.. يشد انتباهها من جديد إلى "الغلاية"، فترفعها عن الغاز، وتضعها على أرضية "المجلي". تحرك الماء كي يهدأ الغليان، تضع ثلاثة ملاعق صغيرة من القّهوة وتحركها

بهدوء. تفكر بالحديقة والبيت وابنة الجيران التي تتمناها زهرة البيت، لكن الخطّاب بدؤوا قرع بابها، والوقت "حرامي .."

تعيد القهوة إلى عين الغاز، فتحاول الفوران أمام ممانعة الحركة الهادئة للملعقة، لتطفئ أم نضال النار قبل أن تتحرر القهوة إلى الخارج .

تملأ فنجانين، وتأخذهما إلى الغرفة. يغلق أبو نضال المصحف بعد إنهائه قراءة بعض الصفحات.

- يسلم ايديكي .

-الله يسلمك.

يشربان بهدوء، بينما تظهر الرجفات على يدي أبي نضال، وفي كلماته التي تخرج سريعة كأنها ماء

تدفق فجأة، ثم تصبح قليلة غير متتابعة..

- بعد بكرا الثلاثا، شو بدنا نوخد لنضال؟

-نفسه بجبنة بيضا من شهر قايللي بس كل ما بنوخدها بمنعونا ندخلها!

يصمتان.

كلما جدّت فكرة حول زيارة نضال، الذي يكبر بعيدًا عنهما في سجن "جلبوع" الإسرائيلي، يجرحان بها الصمت .

يعدان الأيام منذ 20 عاما.. ويبنيان بيته حجرا تلو حجر، بما يتيسر له من راتبه الشهري الذي تخصصه وزارة الأسرى. وها هي ست سنوات متبقية، تشارف على الانتهاء، والبيت بانتظار صاحبه، والأمل معقود على صفقة تبادل قد تأتي بعد حين ..

- وينتا رح نشتري الأثاث؟
- بحكوا الشهر الجاي في عروض ..

أشعة الشمس تتناثر شيئا فشيئا على جدران البيت، مخبرة بيوم جديد، وموعد ذهابهما إلى بيت نضال.

الشارع خال إلا من العمال الذين ينتظرون سيارات "الفورد" الصفراء، والأخرى التي ينتشر على حوافها الصدأ وتنتشر على سطحها الخدوش، وتتسع لأكثر من سبعة ركاب، أما لونها فهو أبيض أحيانًا وأخرى أزرق "كالح"، فيما وجهة العمال أراضي 48.

يمشيان، متكئا أحدهما على الآخر تارة، وأخرى على عصاه، حتى يصلا البيت .

يتذكران أمام الشجر الذي زرعاه في حديقة البيت المحيطة، ابنهما في آخر زيارة له، وكانت تبدو عليه علامات المرض، لكنه نفى ذلك، وقال "قلة نوم مش أكتر" متابعا "المهم إحكولي كيف الجميع؟ شو جبتولي صور جديدة؟"

تقترب أم نضال من أشجار الليمون والبرتقال، في محاولة للبحث عن جديد، لتجد أول ثمرة ليمون بحجم حبة المشمش، مختبئة خلف الأوراق، فتفرح، وتنادي زوجها كي يرى بنفسه أول الثمر .

-الحمد لله، ان شالله عقبال ما نشوف الشجرة مليانة .

ثم تتساءل "بالك بيوكل منها نضال؟"

يصمتان.

يستعيد الأب كل صفقات التبادل بين الأسرى والمختطفين من الجنود الإسرائيليين أو جثثهم، والأمل بالإفراج عن ابنهما كل مرة، الذي لا أن يذبل حين الانتهاء من إعلان قائمة المنوي الإفراج عنهم، ثم يجيبها "طبعا رح يوكل منها، ورح أقشرله البرتقان بإيدّي التنتين ".

حبر سرّي (1)

أطبق فمه كمن يخفي شيئًا، ثم ابتسم برفق ورفع حاجبيه، وبؤبؤا عينيه يتحركان عموديًا لأعلى وأسفل، حين انتصبت أمّه قبالته قائلة بصوت مرتفع "شو بتعمل؟ إلى ساعة بنادي عليك؟"، فأخرج يديه من جيبيه وعلقهما في الهواء على جنبيه قائلًا "ولا إشي!".

وبعد أن أراح رئتيه بتنهيدة طويلة، هرع يركض خلف والدته صامتًا، ينفذ طلباتها دون اعتراض، فينقل معها الأشياء الثقيلة من مكان لآخر، ويذهب لشراء معطيات غداء اليوم.

في المساء، يجلس حسن مع والده أمام التلفاز، متفحصّا الدخان المتصاعد من أنفه، بنكهة عربية، كمنتصرٍ في حرب لم تنته.

يسأل والده:

- يابا شو بتكتب بهاي الدخنة؟

حدقّ فيه والده بأقصى اتساع ممكن لعينين ضيقتين محاطتين بتجاعيد مهملة، وحرّك فمه المطبق بارتفاع يلمس شدّ أوتاره فتحتي أنفه ثم أزاح بصره عنه دون إجابة! وتابع برنامج المصارعة الحرّة الذي يتسنى له مشاهدته نهاية هذا الأسبوع، بينما حسن متروك على حافة انتظار حرف من والده، إلاّ أن صمته كان الجواب، فسقط الأول مرهقًا بنعاس منتصف الليل، لكن بصحوة مفاجئة على صوت والده:

- تعالي قيمي هالولد وحطّيه بفرشته..

فتأتي والدته، تجر قدميها كأنها تمشي في وحل، ثم تصرخ بوجه زوجها، موقظة حسن الذي تشدّه من يده فيمشي هو الآخر رغمًا عنه..

- يعني بتعرفش تقيمه لحالك؟!

ودون أن ينظر نحوهما قال "خذيه بلا كثرة حكي.."

بعينين إحداهما مفتوحة والأخرى مغلقة على حلم، يمسك حسن بخصر أمه مستندًا عليها، فتمد ذراعها حول كتفيه، ليشعر لحظتها بغبطة لا تفتأ أن تنتهي، حين تمده على فرشته وتغطيه بسرعة، قبل أن يبرد فراشها الذي تركت نصفه مفتوحًا لنسمات الهواء الباردة في أواخر هذا

الصيف، وتعود إلى غرفتها.

تتثاءب الأيام ببطء في عمر حسن، الذي يعيش الحياة بين أمه وأبيه، ضمن لحظات مسروقة من الحنان، وأخرى مقتبسة من صلابتهما، حيث كلمّا مرّ من أمام مدرسته حين يقوم بعمله في جمع النفايات والتعشيب في المقابر، تذكر قول والدته "المدارس بتصنعش رجال، الحياة هي اللي بتخليك زلمة."

وفي أحد الأيام، أثناء قيامه بعمله، قطع شروده أحد الزائرين الذي كان يسأل شخصًا جاء معه عن قبر ما، موضحًا أن صاحبه قد مات فيما كان هو خارج البلاد، وهذه زيارته الأولى منذ خمسة أعوام.

يتجه الثاني نحو أحد القبور "هاد هوي، سعيد رضا الكامل؟"

يشير الأول إليه بمعنى النهي "لا لا.. اسم ابوي سعيد رضا كمال!!"

يعود إليه، ثم يتفحصّان القبور الأخرى، فيتجه حسن نحوهما ملقيًا التحية:

- أنا بعرف وين اللي بتدورو عليه!

نظرا إلى بعضهما باستغراب، ثم توجه بصر الأول نحو حسن مرة أخرى مبتسمًا كمن وجد ضالته "وأين هو؟"

- إلحقني..

يقودهما بالفعل إلى القبر، موضحًا طبيعة عمله هنا التي جعلته يحفظ جميع أسماء الميتين وأماكنهم، فهو يرعاهم برعاية ما حولهم، ويستقبل أبناء المقبرة الجدد بترحاب دون أن ينسى السابقين منهم، كل له مكانته. وكأنه أنشأ معهم علاقة من الأخوة والصداقة.

يقول حسن "إلي تلات سنين بشتغل هون، وكل اللي فيها بحبوني وبيستنوني بمواعيدي، وبحس فيهم إن اتأخرت عنهم شوي، وكمان بشتاقلهم.."

يسأله أحدهما: إنت كم عمرك؟

- إمي بتقول إني كبرت، بعرفش إذا 14 سنة كبير بس اللي بيطلع من المدرسة بحسش

بعمره - كأنه يستدرك شيئًا- المهم هاي وصلنا، الله يرحمه!

يقرأ الابن الاسم فيبتسم مسرورًا بأنه وجد القبر، وحين يأتي ليقدم شكره لحسن، يجده على بعد أمتار منهما.. حيث ذهب لإكمال عمله.

يعود إلى المنزل، كالمعتاد، مسرعًا إلى الحمام، ثم يغسل يديه ووجهه حتى قدميه، مثيرًا فوضى من الماء حوله قبل أن يصل إلى المنشفة، ليلبّي نداء جوعه بعد أن يغير ملابسه بتناول طعام الغداء مع والدته، حيث تعوّد أيضًا تناوله وإياها وحدهما حين يغيب والده الذي يعمل في ورشات بناء داخل أراضي 1948، ليعود كل ثلاثة أسابيع، وأحيانًا يغيب أكثر.

وقبل أن ينام، يكتب حسن بإبهامه شيئًا على الحائط، ويصحو في الصباح ليمحوه، لكنه ينسى أحياناً أين كتبه، فيلف الجدران بيديه باحثًا متلمسّا إياها بطريقة تشبه إمساك ممحاة وعملية المحو، حتى يذرف عرقه ويجف اضطرابه باطمئنانه حين يحس بأنه أزال كل شيء.

تكره والدته رؤيته شارد الذهن وصامتًا، لكنها تفضلّ ذلك على أن ينبس بالكلام، حيث لا تفهم مقصده في كثير من الأحيان، والأحيان المتبقية يستفزها حدّ الصراخ بوجه حيرته، فينتابها القلق.. ويوبأ بالسكوت.. متجهًا نحو الخربشة على أرضية البيت، أحيانًا يتحرك إبهامه باتساع دائري ذي زوايا، وأخرى بمناحٍ مستقيمة ومتعرجة، لا يميز الناظر إليه أهو يرسم أم يكتب، لكنه يدرك أن تلك هي الوسيلة الوحيدة التي يتخلص بها مما يدعوه في قرارة نفسه "الأفكار الشريرة" التي تساوره دائمًا، حين يصحو ويغفو ويمشي ويعمل ويستحم ويتمدد ويجري ويتنفس.. أما أصابعه، بهيئتها المنتفخة والمشققة، وأظافره التي لا تشبه بعضها في اللون والشكل، تكبره بأعوام.

ذات يوم، يستيقظ حسن على صوت والدته تناديه، ثم تشير إلى الجدران قائلة:

- ما هذا؟؟

يدير رأسه باتجاه يدها، فيفرك عينيه مجددًا بعد الذي أبصره، ثم يدير رأسه نحو الجهة الأخرى، فوقه وتحته، ويصمت أمام عيني والدته المحشوتين عتابًا، ولا يدري ما يقول.

كيف تظهر كل الكلمات فجأة وبذاك اللون القاتم؟ إنها مثل "خرابيش" الصغار تملأ كل شبر ومتر في هذه الغرفة، وقبل أن تمتد إليه يد والدته، يسارع نحو الجدران ويحاول مسح الكلمات بيديه، ويفركها حتى تتسخ كلتا يديه بالحبر، من دون جدوى..

تسمرّت والدته في مكانها، حين غادر الغرفة تصرخ:

- وين رايح؟؟ حسابك ما خلصش!!

لكنه يتوجه إلى المطبخ، ثم يعود إلى الغرفة بيديه قطع قماش مبللة تستخدمها والدته لتنظيف "المجلي"، ويكرر محاولاته في مسح الكلام، جيئة وذهابًا، إلى أعلى وأسفل، أفقيًا وعموديًا، لكن الحروف تعانده، حتى شعر بالدوار، فوقع أرضًا متمنيًا أن يموت في هذه اللحظة، لكن والدته تسرع نحوه محاولة ردّه إلى وعيه:

- حسن، حسن.. مالك؟؟ إصحى الساعة صارت 9!!

- إيش؟؟؟؟؟

- إنت عرقان كتير، شكلك تعبان؟

فتح عينيه ببطء شديد، كأنه يخشى رؤية شيء ما، ينظر إلى السقف أعلى رأسه، فيغمضهما.. ثم ينظر إلى يمينه فيتنفس براحة لا تكتمل إلا بالنظر نحو يساره، ووالدته متعجبة من تصرفه، ثم يبتسم قائلا:

- صباح الخير!

حبر سرّي (2)

كسر صوت اللهاث صمت الليلة الأولى من شهر آب. تفتح امرأة شباك بيتها، وإذ به يجري دون انتباه لوحشة الطريق. تناديه:

حسن.. حسن.. مالك؟

لا يسمعها.. يستمر في الركض، يتعثر دون أن يقع. لا وقت لديه ليمسح العرق الذي تكوم بين شفتيه وأنفه، على رقبته، ويبلل قميصه.

بين اللحظة التي خرج فيها من بيته والتي لا يدرك فيها هذه العتمة الآن، لا يرى المسافة التي قطعها. يرى يدي والده تصفعان كتفيه، وجهه، صدره، ثم توقعانه أرضًا، حيث انتظرته أمه، تنظر إلى عينيه، وتصرخ باكية "ارحل.."

تتكئ ركبتاه على الهواء.. يوشك أن يقع، والتوقد في عينيه يزداد دون دمعة. تتداخل الصور في ذاكرته..

"حسن اذهب.. حسن تعال.. حسن لا تفعل.. المدرسة ليست لنا إنها للذين يملكون قسط الجامعة.. الحياة مصنع الرجال ونحن نريدك رجلًا لا خنثى! حسن اعتن بأخيك.. لا تقرأ، القراءة من عمل الشيطان. اصمت! حسن.. حسن.. حسن! ..."

يغلق أذنيه بكفيه الكبيرتين مقارنة بسبعة عشر ربيعًا أفناها خريف الحياة فيه. أصابعه المنتفخة تلمس رقبته، ويغمض عينيه.

يفتح عينيه أمام فكرة الخوف من كتاباته على جدران البيت وحرارة الإسمنت في أرضيته. يتذكر كل ما كان يصفه بـ "الأفكار الشريرة" التي يدونها ويرسمها هنا وهناك ثم يمحوها. هي التي أرقته دومًا، فآخر مرة قبل أن يضربه والده، استيقظ فزعًا محمومًا على خوف اكتشاف والدته للسر! لكنه ما لبث أن عرف الحقيقة.

يقع حسن أرضًا.. منهكًا من الأشياء. يمددّ جسده على أرضية قرب بيت مهجور قاده إليه ضياعه. يغمض عينيه محاولًا أن يرتاح، لكن الأفكار تلاحقه.

كان الاعتياد في إهمال والده وتفضيل التلفاز على الاستماع إليه، والاعتياد في وداعه كل مرة

دون قبلة، ودون ابتسامة على الجبين. لكن.. لم يصل الحدّ به أن يبرح في ضربه كما هذه الليلة!

أمه تصرخ فقط "سمّي سمّي بالله.. هسة بلتمسه".. يفكر بهذه السذاجة التي ألقتها الحياة على عقل والدته، يحدث نفسه "ما الفرق بين ضربي وتناول الطعام؟"

لم يكن حسن يتكلم إلا همسًا. أو لا يتكلم! تفجر الدم في وجهه بعد الصفعة الأولى لأنه رفع صوته أكثر من الهمس بقليل! حينها اكتشفت والدته التأتأة والارتباك الذي يحيط بطريقة ابنها في الكلام. هي التي تمارس الأمومة كما تراها صائبة. أن تطبخ وتغسل وتنظف البيت، لكنها لم تسمع لابنها يومًا حديثًا غير "طيب.. حاضر.. كمان شوي..".

تذكر حسن دموعها حين قالت له "ارحل.."

"الله أكبر..

اللهم ارحمه وأسكنه فسيح جناته... "

صوت الإمام يتخلل هذا الصخب في ذاكرته. الشيء الذي يرافق كل موت إلى المثوى الأخير.. أو ربما قبل الأخير، كما قال أحد الباكين في جنازة أول أمس. حينها أكمل حسن المهمة بتنظيف مخلفات الدموع من المحارم.

يستذكر عمر وأحمد ويوسف وموسى وأبو رائد وأم سالم وأم العبد والطفلة ليلى.. بعض أصدقائه من الموتى. ينام على الاشتياق لهم.. وحدهم آخر ما شاهد قبل أن يغرقه النوم!

استيقظ على صوت الجرافات، حيث وجد نفسه في الصباح أمام مبنى قيد الإنشاء وليس بيتًا مهجورًا كما ظن في الليل. وحين سأل من حوله عن المكان، عرف أنها قرية قريبة من قريته.

وهناك على المفترق بين القريتين، يفكر: "العودة أم الرحيل؟"

"والآن نفتتح معرض الغرافيتي الأول للفنان حسن عابد" أعاده الصوت إلى اللحظة في الحاضر، لمعت في عينه دمعة، ابتسمَ وقصّ الشريط.

ليست قصة قصيرة ليست رواية

كنتُ أستطيع اختزال كلّ ما يُساورني في نص قصير وأمضي، أو أتخلص منه عبر منشورات وقصص عديدة أُلبسها الحكاية، وأنسى، لكنه سيعدّ تجاوزًا أليفًا للحالة التي أعيشها، الشيء الذي تساعدني فيه الكتابة على الدوام.. ماذا لو لم أرد تجاوزَك؟!

أعرف جيدًا أنه لا ينبغي توطيد الفكرة التي لمعت في عقلي ثم قلبي ذات يوم، حولَك، إذ لن أصل إلى شيء معك، كما لم تصل أيّ منهن إلى شيء قبلي، لكن حدسًا ما يخبرني بأن شيئًا ما سوف يشتعل بيننا، لذا؛ اخترتُ المواجهة.

ليس انتصارًا أو هزيمة، لي أو لك، ما أريد، إنما أسعى لأن تصبح أنتَ الفكرة، وتظلّ أنت الفكرة، التي لم تخطر على بال أحدٍ سواي!

آمنتُ بالنظرة الأولى، والإحساس الأول، وبكل الانفعالات الأولى التي جذبتني لرجال قبلك، حتى عرفتك، فتغير كل شيء.

مضى عامٌ ونصف العام، دون أن يلفتني شيء فيك، وكنتُ أراك "في ذات السياق" الذي يعيشه البقية، خصوصًا أنك لست ما أنت عليه أمام الناس، كمعظم الرجال في بلادي، الذين يخبؤون شخصيتهم خلف جدران الذكورة.

رأيتك مثل أولئك الذين يمرّون عنا يوميًا في الشارع العام ولا ندرك مرورهم؛ إذ يسيرون إلى وُجهات لا تهمنا.

كما أبعدني عنك طمعُكَ بالنساء، الذي يدفعك لمنح أي منهن اهتمامَك، وأشياءَ تشبه الحُب، لكنك لم تعشق أيًا منهن، وربما أسعدك -وما زال- وقوعهن في حبك، أو ربما كنت تبحث في كلّ امرأة عن شيء، لكن أيًا منهن لم تقنعك بأنها تملك كلّ شيء لتبقيكَ إلى جانبها أكثر، أقصد لها وحدها.

تدخينك المتواصل، وشتائمك الغبية، واغتنامك أي فرصة تقرّبك من جسد امرأة، والشرّ في عينيك، ولامهنيّتك في العمل، وعطرُك الغبي، وغرورك. مسائل صنعت منك رجلًا لا يثير فضولي لمسافة أبعد من مقاعد الزمالة، إلى أن أتى ذلك اليوم، الذي لن أكتبه.

لا أتذكر كيف بدأتُ أصغي إليكَ وتصغي إلي، وأبتسم لك وتبتسم لي، من دون مناوشات وضغينة.

لكني أستطيع وصفك في أول محادثة بيننا "على الماشي", حينها التصقت رجفة بجفنيك، وحاولت فاشلًا إخفاءها بإصبعك، ولم أعِ سبب ارتباكك.

وفي يوم آخر، تصارحنا وضحكنا على أيام البُغض بيننا، وكانت الشرارة سيرة يافا، أنت الذي زرتها مؤخرًا، وتود لو يعلم الكون بهذه الزيارة لحبيبتك المنسية، وأنا أسألك إذا كان من الصواب الاستسلام لكل ما يمليه الخاطر، فأجبتني "طبعًا"، وكأنني احتجتُ ردّك؛ لأبعث بذاك النص إلى حبيب سابق، ويجيبني ب " "Screenshotsلمنشورين في "فيسبوكه"، يعلن فيهما أنه ما زال يذكرني وأن يافا التي جمعتنا معًا أوجعته لأننا لم نكن بالفعل "معًا"، ثم كتب نصًا اعتبرتُه "مجاملة".

في حوارنا، قلتَ إن امرأة في قلبك، ستدخلها يومًا إلى بيتك الذي تبنيه مما تجنيه يوميًا لقاء شقائك، على أرض قريتك الصغيرة. كنتُ سعيدة، لأنني المرأة التي تعرف الآن قصتك، وأنتَ تدرك ذلك، لذا لن تفهم عفويتها المستقبلية في الحديث معك بشكل خاطئ، كأغلب الرجال الحمقى.

ضحكاتك..

الأولى

سرتُ خلفك بحذر، بعد اجتماع عمل مطوّل، وكنت أخشى على نفسي منك. أدرتَ وجهك نحوي فجأة، لا أتذكر ما قلت، لكنه رسم على وجهك ضحكة، أغمضتَ فيها عينيك بغرور لذيذ، ثم فتحتَ قلبي على احتمالات عديدة، كان أهمّها مجهولًا!

الثانية

كان غيابك، علامة نهار آخر رتيب، حيث طقطقات لوحات المفاتيح، ودويّ المروحة في يوم صيفيّ عنيد، رفعتُ رأسي قليلًا كي أهدئ من غفلة الوقت على أصابعي المرهقة، فوجدتك أمامي، ودون وعي منّي قلتُ "ما أجمل طلّتك".. لقد غيّرتَ حسابات الكون آنذاك، ثم ضحكتَ لي طفلًا حصل على "الشوكولا" التي يحبها، ومشيتَ نحوي وأعجبكَ الطريق.

الثالثة

أنهيتُ مكالمةً للتو، وانتكاسة عينيك الفرحتين بحديث لنا قبل قليل أوحت لي بأنك عرفت محدّثي في الجهة المقابلة. كنتُ ألملم ارتباكي بعد صوته مستعدةً لرؤيته، لا أعلم من أي الجهات يجيء

الفرح كما يجيء الحب، ثم بلهفة مراهقة ودعتكَ للسير إليه على غيم اشتياقي.. ودَعتني بجبين مضطرب، وكأي رجل عجوز طيب أرسلتَ لي ضحكة هادئة، وكأي امرأة تحاول العبور إلى ما اعتقدتهُ "الصواب"، تجاوزتُك!

الرابعة

كنا والفراق نقتات على فتات ذكرياتنا، أو ما بقي منها عالقًا في اعتياد أيامنا التي لا تنتهي. لستُ معك بينما كان كُلّي معك، أنصت لضحكتك المجنونة التي ولدت حقيقية، ليس لأن النكتة التي قالتها طفلتك المدللة مضحكة فعلًا، بل لأنك سعيد بأن الصغيرة بدأت تكبُر وتعبّر عن حبها لـ "أنت" وتعيد على مسمعك ذات النكات التي يحفظها كلّ الأطفال حتى نحن في زمن مضى.

الخامسة

أنتَ كما عوّدتني في أيام الجفاء بيننا، تحاول استفزازي، كأنك تعاقبني لأنني لا أتكلم معك أو لأننا لم نعد معًا، ولأنك هكذا، تقوم باختلاق شيء ما تحادث به شخصًا بجوارنا، معليًا صوتك ومختلقًا من شيء لا يستدعي الضحك، ضحكة مزيفة. بقدر ما أراك غبيًا في تلك اللحظة، أتأكدّ كم أنت أحمق.. ورغم هذا، لا أتوقف عن التفكير بك!

مسوّدات

1

أحاول قراءة أفكارك فلا أستطيع، أو أتكئ على تأويلاتي الشخصية التي بقدر ما تزيد توقي إليك، تؤكد لي ضرورة الابتعاد إلى أقصى حد، ربما كي لا يتكرر الخذلان، أو لأنني أعرف تمامًا أنك "تخبئ في القلب امرأة" فأعلم حدودي رغم أنك لم ترسم أي حد بيننا، أو بينك والأخريات، غيري، وغيرها!

أتعلمُ كم مرة كتبت ورقات صغيرة لأبعثها لك ثم مزقتُها كي لا أتورّط في وهم جديد؟ وأنا التي اعتادت أن تكون امرأة أخرى في المنتصف بينها وبين من يلمع في ذهنها فكرةً. ربما هذا ما يسمّونه قدَرًا.. وربما أصبحتُ فجأة، امرأة تؤمن بالقدَر!

2

حين أستعيد "تتر" حكاياتي معك، أشعر أن علاقتي به كانت مناكفة، أقترب منه حين تبتعد،

وأكون في ذروة الحياة حين تحادثني، وما إن يرّن هاتفك وينخفض صوتك في إشارة إلى أنها "هي" حتى أسارع لمذاكرة صوري مع حبيبي الذي اشترط في عودتنا أن نكون مجرد رفيقين، وقبلتُ كي لا أفقده مجددًا، ثم أقرأ رسائله، وأضحك مناكفة، رغم أنها لا تلبّي شغفي بعلاقة كتلك، تتأرجح كصراط يمشي فوقه شخص احتار الله في مصيره "جنة أم نار؟".

أنتَ أيضًا كنتَ تناكف، فحين أبعتد يحلو لك ما لم ترغبهُ سابقًا، وتصبح ضد كل ما أنا معه، حتى لو لم تكن ضدّه، عدا عن مغازلاتك للنساء حولي أو تبادل قهقهاتك السخيفة معهن. ربما لم تكن مناكفة، لكني أصدق إحساسي.

3

أكتب الآن وأنت بجانبي. هل تدرك هذا؟ بالطبع لن تدركه.

وهواجسي بك، ترتطم بلوحة المفاتيح، لتحدث ضجيجًا يزعجني ولا أعلم إن أزعجك، بل يوترني، ولا أدري كم وتّرك..

هل أنت مثلي؟ هل تعوّض عن غياب كلامنا بالكتابة وتخبئ نصوصك في دواليب الحظ؟ أو هل تتذكرني في بيتك؟

أحيانًا أصاب بحمّى اسمها "أنت"، وأحيانًا أخرى لا ألحظ وجودك، وقد لا أتذكرّك.

لم أقع في حبك، لكن هل أعرف الحب؟ كنتُ أظنّ سابقًا أن الحب هو أن أصاب بارتباك قدميّ وتقلّص في معدتي مع انقباضة لذيذة في دمي حين يتهادى إلى فكري شخص ما أو أمرّ عنه أو أسمع صوته حتى لو قال "مرحبا"، لكنّي أدركت حديثًا أنه شعور خادع، وربما لا.

على الأغلب، أنا مشوشّة الآن..

4

بماذا تفكر الآن؟

5

أخبرتك أننا عدنا رفيقين، أنا وهو، بعد فراق أكثر من 800 يوم. وبالتزامن، كنتَ تقتربُ منّي

نفسيًا وذهنيًا، وأكثر..

6

أصبح كل شيء مرتبطًا بك. كيف لا، ونحن نتجاور أكثر من ثماني ساعات. نتشارك الانفعالات منذ بدئها صباحًا بالاستماع إلى فيروز التي مللتُها أو بعض أغانينا المفضّلة التي نتذوقها بشكل خاص، كما نتشارك ذكرياتنا مع الأحداث، ونسترجع صورًا قديمة أحيانًا بالضحك وأحيانًا أخرى بالبكاء.

صرتَ تعرف ذوقي في الطعام والموسيقى والبشر والفصول والملابس، وصرت أعرف متى يمكنك التعقيب على حوار ما قد يثير فضولك، كما أعرف ما يضحكك وما ينزع عنك طوق الفرح، وأملك ساعة فيها توقيت مللك وانشغالك وتدخينك أيضًا، فسجائرك التي بدأت تقلّ تدريجيًا، أصبحت شيئًا أتوق إليه، لك طريقة في التدخين، لا تشبه فيها غيرك من المدخنين.

7

كنتُ أتوقع منك بعد استشارتي العاطفية بشأن تذبذب ضربات قلبي صوبه، الابتعاد مسافة تكفي لكي أتوقف عن التفكير بك، كي أتفاجأ أنك تقترب أكثر، وكرهتُ سعادتي بذلك.

وأكره حين يصيب قلبي ذلك الانقباض اللعين والتدفق المتهوّر لدمي إذا ما اقتربتَ جسديًا مني مسافة متر أو مترين، أو حتى مررت عني سريعًا بطيئًا بغير قصد.

وأكره أيضًا أنني في البيت لا أفكر إلا به، حيث ملأ حياتي برسائله اليومية وصوره الصباحية والمسائية، وكذلك أفكاره التي أتعرّف عليها بشكل جديد. هذه المشاعر المتصارعة كانت تقودني إلى البكاء، دون أن يشعر كلاكما بي!

هو عاد إلى مواقفه التي أزعجتني سابقًا، وعدتُ إلى السؤال الصعب "هل يحبني حقًا أم أنني المتاحة الآن له؟" ولسؤال آخر أصعب "هل أحبّه أم أنه المتاح الآن لي؟". فأسوأ ما يمكن تصوّره عن علاقة بين رجل وامرأة، أنهما يتمسكان بها لأن لا خيار لديهما إلا هي.

8

اتجهت علاقتنا إلى حتفها، بالتزامن مع تتويج حبيبته السابقة عروسًا إلى حبيب آخر بعده، ولأنه اختلق حججًا كثيرة ومريبة لإقناعي باللاجدوى من استمرارنا معًا.. كانت الفكرة الوحيدة التي

تدكّني، أنه لم ينسها، وأنني أنثى الوقت الضائع.

أنا وحيدة جدًا يا صديقي.. راهنتُ على نفسي مرارًا بأنني لن أُنسى، لأجده بطرفة عين، يسحب ثقتي واعتزازي، ويحيلني إلى كائن يصارع الفراغ!

بعد الفراق الأخير، اتضّح لي فراغه الحقيقي، إذ اقترب ممن عاداني، يضحك معهم ويتبادلون النكات والأحاديث السخيفة عبر وسائل التواصل الاجتماعي.

لم أتمنّ سوى رجل يبتعد عمّا يُزعجني ويأتيني بما أحب، هل هذه معجزة؟

9

يُقال، إن أصدق الأشياء تُقال حين يكون الشخص غاضبًا، وهذا ما اكتشفته في محادثتي الهاتفية قبل الأخيرة معه. كان كلانا صادقًا حدّ الوجع!

هو لم يكن الذي عرفت أو ربما ليس الذي افترضت. أنت تعلم، نحن في الحب نملك قلوبًا عمياء، تتغذى على الافتراض والخيال أكثر من الحقائق.

قال لي إنه كان يسمع الأغاني لأجلي وهو لا يحبها، وإنه كتب الشعر كي أُعجَبَ به وهو لم يكن قطّ كاتبًا، وإنه امتنع عن شرب القهوة وأقبلَ على الشاي لأنني أفضل الثاني ولا أشرب الأول. وإن لا شيء يعجبني منه وفيه مهما فعل، وإنّي وإنّه وإنّي وإنّه.... ضجيج كبير في رأسي، وأفكار تحوم وتدوّي، ودمع يخنق أعصابي ولا أستطيع تركه لمجراه.. كانت صورته تتهاوى في قلبي كلمّا زاد كلمة على الهاتف.

ثلاثون يومًا غاب عن البلاد، وانتظرته. انتظرته بيقينٍ كامل أنه سيعود لي، ونتجاوز أزمتنا كأي عاشقين أو صديقين كما أحبَ تسميتنا، لكننا لم نعُد.

بعدها سرتُ نحو متجر العطور، يثقلني البؤس، ومحرجةً من أي حزنٍ يملأ وجهي قد يلفت انتباه البائع، الذي طلبت منه إعادة زجاجة العطر التي اخترتها في يوم ميلاده، وظلت أمامي مغلفة بورق ملون تعلوه وردة صنعها ذات البائع بفرح، لأكثر من شهر، وظلت ورقة صغيرة معطرة بنفس العطر من الزجاجة الخاصة بتجربة الزبائن، داخل محفظتي، أشمها يوميًا بانتظاره.

عدتُ إلى بيتي بدموع غزيرة لم يمنعها حشدُ المارّة في الشارع العام. ولم أبكِ علينا بعد ذلك اليوم.

أتعلمُ ما الذي كان أكثر إيلامًا من أن أتركه أو يتركني؟ أنك ابتعدتَ.

أصبحت نهارات الصيف خانقة دون "صباح خيرك"، أو مُزاحك وسخريتك اللطيفة. لم تعد تسألني "ما مزاج أغانيك اليوم؟" ثم نغيب سويًا في المزاج. لم تعد تسألني "هل أنت جائعة؟" فنضحك كلانا وقبل إجابتي تهاتف مطعمنا المفضّل.

صعبٌ بعدك. قاسٍ جدًا يقيني بأنك لستَ لي وأنت القريب من قلبي مسافة صفر.

10

في الهجوم على قطاع غزة، كانت الضفة مضطربة أيضًا، رأينا فيها الشهداء والجرحى، وعاصرنا الأحداث سويًا، ودخلتُ ثلاجة الموتى للمرة الأولى، لأدرك رائحة الموت المرعبة التي سمعتُ عنها مرارًا.

كنتُ معه وكنتُ أيضًا معك. وعندما يوقظني صوت آليات عسكرية مارّة من أمام بيتي، أو يسرق نبضي ضجيج الألعاب النارية إذ لا أميز بينها وبين الرصاص، لا يخطرُ في البال سواك، فأطمئن لصوتك إن سمعته عبر هاتفي إليك في وقت متأخر جدًا، إذ أعلم أنك تساهر الأخبار العاجلة وإن تكررت ونُسيت معلقة في الشاشة لوقت طويل.

كنتُ معه وكنتُ معك، لكنّ صديقاتي بتن يعرفنك أكثر، وبعضهن يتشوّق لرؤيتك من تكرار اسمك في أحاديثي معهن، وإن زارت إحداهن مكان العمل، تلتقطك سريعًا.

كنتُ معه وكنتُ معك، وحين حصلتُ على تذكرة لأمسية غنائية لفنانتي المغربية المفضّلة سارعتُ بإخبارك، فاستقبلتَ فرحتي بقلب واسع جميل وصرخت مازحًا على الهاتف "واااااااو"، ف إشارة إلى الكلمة التي أرددها وتقلدّني بتكرارها عادة..

11

أنا لم أكره عيوبك. حتى أنني في الوقت الذي أعليتُ من شأنها أمام الآخرين، أحبّوك، ربما لأنهم رأوا لمعة الشوق في عيني فأدركوا حجم قلبك.

12

أعرف أنك الآن، رغم هذا البرد القارس في علاقتنا، والنار التي تشتعل في داخلنا من أجل شجارٍ -على الأقل- بيننا، تجعلنا نتكلم مع بعضنا، لا تكرهني. كما أنني لا أكرهك. ربما كنت أحبك وربما كنت تحبني، وربما هكذا من دون سبب نرتاح حين نكون معًا ونفقد مؤشر البوصلة نحو سعادتنا حين نفترق.

كنت تتعمّد استفزازي، أو إثارة غضبي كي أتكلم معك. وكنتُ أرى ملامح وجهك حين تسمعني أحادث أو أمازح رجلًا غريبًا (عنك) عبر الهاتف أو بجانبي في موعد زيارة، واهتمامك الزائد غير المفهوم بذلك، أدرك أيضًا استغلالك وجود أي صديقة لك كي تهتم بها بطريقة يتضح للجميع المبالغة بها، لشدّة حماقتها، اعذرني، فأنا أراك أحمق كل مرة تقوم بذلك.

13

برأيكَ متى سيُرأبُ هذا الصدعُ بيننا؟ هل سنعود يومًا ما أصدقاء؟

لا. لقد نموتَ في قلبي أكثر من صديق، ولا أستطيع الاحتفاظ بك أقل من ذلك.

14

أتعرف ما الذي أتمناه حاليًا؟ أن نذهب معا إلى عكا، نجلس جنبًا إلى جنب في الباص الذي سيقلّنا إليها، وأقرأ لك وتقرأ لي من كتبنا أو أشعارنا المفضّلة، وقد أغنّي لك وتغنّي لي ما لم يقله كاظم الساهر من قصيدة نزار قباني:

عيناك.. أمامي صافيتان

صفاء سماء حزيران

وطفولة وجهك مقنعة

أكثر من كل الأديان

ونضحك بعدها على نشازنا، وربما نصمت أو نتبادل الابتسامات فقط، أو تشرح لي بلهجتك المرتجفة وتأتأتك الشهية أشياء لا أعلمها، بينما أمشي على السور أصطاد نسيم البحر وألقيه في صدري، وتمشي بمحاذاتي تصوّر ثم تصرخ فجأة "احذري.. لا تسيري أكثر.. ألم تقرئي اللافتات" ولا أستجيب لك سوى بسحبك من ذراعك، وأشعر بخوفك لأنك لم تعتد الخروج عن

النص وترك قلبك للريح.

وتموت الأفكار، وتموت أحلامي بك، تمامًا كما يموت المشردّون.. بصمت.

15

تدري؟ يعجبني موقعك في العمل بجانبي، وليس مقابلي؛ أستطيع معرفة توترك باهتزاز الطاولة عندما تهز ساقيك أو تقفل جرارك بعنف. أسمعكَ كأني أراك، وأعرف ملامح وجهك من صوتك، كما أستدل منه على صدقك من كذبك. صوتكَ كان طريقي إليك في زمن تجافينا، وأبأس الأيام تلك التي لا تنطق فيها كلمة، حتى تحادثك (هي)، فتمشي سريعًا إلى مكان لا تُسمع فيه، حينها أطمئن أنك بخير.

أحتاج أحيانًا فقط أن أقف بجانبك، كأن أتذوقك بصمت، وأشعر بضعفي الداخلي حين أعيش لحظة كتلك، وأحب ضعفي هذا كما أكرهه، الشيء الذي يجعلني أتجرأ وآتي لنافذتك، وحجّتي أمام الآخرين شمس الشتاء. تدير رأسك محاولًا رؤية ما يلفتني لتبرير هذا الحزن الخفيف.

نهاية 1

لم أكتبُ لك وأنا لا أعنيك وأنا لا أعرف ما تعني لي حقًا؟ من أنا؟ من أنت؟ هل سنصبح يومًا ما "نحن"؟

إنها العدمية نحوك.. العدمية معك..

لم أنت حزين وهادئ أكثر من المعتاد اليوم؟ لم أفكر بك الآن بهذه الشراسة؟ حين تحزن أو تصمت طويلًا، أشعر الكون ينهار على قدمي امرأة فقدت نجلها للتو؛ أشعر بروحك المخنوقة تحيطني رغم كلّ الموسيقى التي أحاول عبرها النجاة منك، ثم أفكر، إن كنتَ حزينًا أم أنه حزني المتراكم لغياب ضحكاتك!

وبين حُطام الأسئلة، أتذكر حين مررتَ عني في نهاية آخر يوم في الأسبوع الماضي، إذ نظرتَ لي بقصديّة واضحة. لم أستطع منع عينيّ من بوح شوقي وشفتي من الابتسام. أنا بالفعل أشتاق لك. ولا أستطيع وسط هذا العنف الداخلي والخارجي بيننا سوى أن أشتاق. أنا فقط أشتاق إليك ولا متسع في صدري إلا للشوق، فهل تستطيع منعي من أن أشتاق؟

عودة 1

يبدو أن مسكَ فبراير، كان صدفة الاقتراب منك. كم سهلٌ هو الأمر لمن يرانا عند مكان إعداد القهوة بجانب بعضنا البعض كأي زميلين يلتقيان في وقت إعداد القهوة، وكم صعب هو تماسكي بألا ألفظ حرفًا أو حتى تنهيدة إلى جانبك، وأنت الذي تدندن أغنية من القرن الماضي برجفة صوتك الذي استيقظ لتوّه.

كان الوضع عاديًا جدًا حتى عدتُ مكاني، لأعاود العمل أمام الشاشة، حتى أدركت خفقاني المتسارع وتوتر قدمي.

وللتخفيف من ارتباكي، أعود للأغاني التي تركتها مفتوحة، وإذ بفيروز تتساءل "ما بعرف كيف بتحس وما بتعرف شو عم بتحس.. ما بعرف كيف بتحب وما بتعرف إزا عم بتحب" ...

عودة 2

مرت أسابيع على آخر مرة كتبت لك فيها. حيث توقفت عن الكتابة ليقيني بأن هذه الكلمات تدوّي وحيدة في الفراغ، بلا جدوى. وبين سؤال وآخر عن الجدوى أو عدمها وماهيّتها وما أريد وما لا أريد منك، سقطت ظروف الكتابة، وقررت المواصلة لأكتب فقط.

ها هي سترتك "الجينز" التي لا أحبها ولا أراها تليق بك، تركتها خلفكَ اليوم، تتهادى مع ضربات الهواء القادمة من النافذة.

السترة التي لا أحبها، لا تذكرني بك، لأنني في العادة أتذكرك دون سبب، لكنها تمنحني أملًا بأنك ستأتي في لحظة ما لتأخذها.

أنا لا أفكر بك طوال الوقت، لكن نوبة ما تجتاحني فجأة هذا المساء، تجعلني أشتاق لك كثيرًا، وأودّ لو أتكلّم معك جملة واحدة من ثلاث كلمات، قد تكون على سبيل الخلاف الحاد بيننا، لا يهم! هذه النوبة شعرتها في الوقت الذي قررتَ مغادرة العمل.

وددتُ لو أنادي باسمك فتعود دقيقة واحدة، تكفي لأن أطيل النظر إلى وجهك. أو خمس دقائق أعانقك فيها وأقتلع كل الأعشاب التي نمت بيننا حين نتفككُ قبلًا متلاحقة تصطاد ذروتها على الشفتين..

اشتقتُ لك...

ليتكَ تأتي الآن، صدفة، أو قصدًا، كي تأخذ سترتك التي لا أحبها.

ماذا لو كانت الحياة أكثر بساطة، بحيث أتمكن من مهاتفتك حين أريد، بذات القوة التي تعترينني الآن، وأطلب منك موعدًا.. لكننا في هذه المساحة من العالم، حيث أنا وأنت، لا نقوم سوى بقتل الرغبة يوميًا، وإعلان انتصارنا المزيّف عليها باسم العقل.. أو ربما باسم الدين!

عودة 3

اليوم لا أشعر بشيء نحوك. ربما لأنني لا أشعر بشيء منكَ نحوي. ربما أنت أيضًا لم تعد مهتمًا. أو فلنقل لم تكن مهتمًا، وما كان فقط محض خيال.

هو؟ أيضًا لا أفكر به. لقد أزال الـ "Block" عن حسابي في الفيسبوك من قائمته مؤخرًا حيث صار اسمه يظهر بين تعليقات عديدة لدى أصدقاء مشتركين بيننا، لا أشعر نحوه بأي شيء.

الفيسبوك لا يشعل الذاكرة، فأشياء كثيرة كانت تذكرّني به، لكن الفيسبوك يشعل الندَم، حيث كلمّا كنتُ أرى تعقيباته أو منشوراته أو تعليقاته لدى الآخرين والأخريات، يرتفع منسوب الندم على تضييع الوقت في عدم نسيان شخص مثله.

تخيّل مثلًا، قبل أيام، كنت أتسوق مع صديقتي، التي دخلت تبحث عن قميص تهديه خطيبها، وكنوع من تضييع الوقت في متجر ملابس "رجاليّة" لا أدخلها إلا ما ندَر، وقعت عيني على "تي شيرتات "Poloالمعروفة بتصميمها، وأعجبتني الألوان، وحين لمستُ طرف أحدها، شعرت أنني أمسك بذراعه، رأيت ذراعه أمامي. لقد كان هذا مزاجه المفضل والمكرر من القمصان.

لهذا أستطيع القول، إن الكذبة الكبيرة حول الذاكرة هي"تبخّرها"، ولكن الحقيقة الراسخة أن القلب ينسى. ومنذ دموعي في ذلك الشارع العام، نسيه قلبي.

عودة 4

البارحة لم أركَ بتاتًا. لم ألحظ لون ثيابك. لم نتبادل كلمة واحدة. لا شيء.

عودة 5

بينما كنت أتجول اليوم صباحًا في الإنستاغرام خاصّتي، لاحظت "لايك" منك على صورة "سيلفي" لي أنا وزميل آخر. لا تجزع، إنها "لايك" قديمة. كم أسعدتني رؤية اسمك على الصورة. وأتذكر ذلك اليوم جيدًا في رمضان. كنت عدتُ إلى العمل بعد انتهاء يومي، وأحضرت معي بعض الطعام لنا. وسرّني موج نظراتك نحو عينيّ، كانت نظرتك جميلة. ثم حين فاحت

رائحة الطعام، قلت بصوت مرتفع "لاااا" بطريقتك اللذيذة في مدّها، وأضفت "خلّي ريحة العطر الحلوة"..

عودة 6

أحتاج أن أقترب منك. أريد أن أقول لك ذلك، فأخشى أن تفهمني بشكل خاطئ، أو لا تكترث، فأشعر حينها بالإهانة، أو الابتذال. أنا بالفعل بحاجة لك، بحاجة لأن أعانقك وأبكي قليلًا.

عودة 7

يخطر في البال الآن مشهدٌ بعيد، كان لنا فيه صديق يتحدّث عن تجربته الأولى في الحب، التي أدّت بعد فشلها لرحيل حبيبته من البلاد لأنها لأن كل ما فيها ذكرياتهما التي تطاردها.. رحَلَت ولم تعُد أبدًا.

أبكتني قصّته، وابتسمت في قلبي، لأنني وجدتُ سببًا للبقاء في البلاد، هو أنت.

نهاية 2

كان من الصعب علي تقبّل فكرة أنّي نسيتك بهذه البساطة، وأنا التي كانت تطوي الأيام في بُعدها عنك شوقًا تلو آخر، حتى إذا صادَفَتكَ في طريق هربت إلى آخر خشية اللقاء بعينيك، وحين صرتَ أمامها، بكامل يقينها المحتمل، ذاب كل شيء فجأة، فلا دمٌ يتوهجّ في صدرها، ولا نبض يوجعها في الجهة اليُسرى، ولا ارتعاشةٌ في اليدين حين تمد يمينك لتُصافح يمينها... تخيّل، لا شيء.. كأنني لم أكتب، كأنّك لم تقرأ، كأننا لم نلتقِ.

نهاية النهايات

يقال، إن وجود بعض الأشياء يتعلق بمدى إيماننا بها، فإذا آمنا كانت موجودة وحقيقية، وإذا لم نؤمن بها، كانت لا شيء.

سأفكر إذن أنّ كل المشاعر التي منحتني إياها كانت لأنني آمنتُ بها، وأنت لم ترها لأنك لم تَلحَظها، هي حقيقية لي ولم تكن يومًا كذلك بالنسبة لك. هذا يبدو تفسيرًا غاية في الجمال، غير مؤلم، غير مأساوي، ويحافظ على مسافة الاحترام بيننا، أقصد أنا وأنت. طاب نهارُكَ يا صديقي.

ريختر

لم تغلق باب غرفتها. ولم تعر انتباهًا لتماوج الستائر، التي تفصل زمنيًا بين نوافذ البيت والعالم.

تفكر.. تتكلم.. تتعثر بالصوت الخفيض. تستل حسامه ليفتك بها، ويشطر عمرها سطرين. أحدهما ملغوم بحروف الشهوة، والآخر بصمت الخطيئة.

سيبدآن السير على صراط الرغبة، ثم يحتسيان سويًا نخب العذرية الضائعة بين الصفحات البيضاء. ما شكل الكون المحاصر بين شفتيهما المرتبكتين؟ لا يعلمان !

يعلن أنوثتها بين كفيه. تحتويها ذراعاه المهزومتان خلف الشاشة. فكت أزرار قميصها بيدين من نحاس، يتصفحها عاريًا ..

يناديه والده.. لا يستجيب! تناديها أمها.. لا تسمع! يقيم المؤذن صلاة المغرب.. فلا يتساءل أي منهما عن ميقات الصلاة !

يصرخ طفل.. يعوي كلب.. تتمطى القطة.. تسقط ملعقة عن الطاولة.. يعلو صوت الثورة في شرق المتوسط، وصمت الضحايا يدوّي في شوارع حمص! والمراسل الفلسطيني ما زال عالقًا على الحاجز .."

يعلو جرس الهاتف الذي جرّ قدمي جارتها اللاهثتين، فهو موعدها للاتصال بابنها في بلاد لينين، لكن.. لا أحد يجيب شوق الجارة! تسقط الآلة من بين يديهما، يستسلمان للنشوة.. ثم يهدآن .

يخترق صوت (الآه) قلبيهما معا متسللًا من سماعة الأذن التي تصل قلقه بقلقها وشوقهما المشتهى لانهيارات الجسد.

تفرقهما الطريق.. فيمارس كل منهما أحلامه بالآخر حتى ميقات صحوة جديدة، وما بينهما استرجاع لتلك اللحظات ت تحت "دوش" الاستحمام، يعلوه توتر، ويرافقه فرك عنيف برغوة الصابون لمحو آثار السر.. تستلقي على فراشها بين شهيق وزفير، وبين لذة ما تسمّيها "المعصية" وجَلدها.. هي بين بين!

يتابع اللف والدوران بين الشركات والمؤسسات لإقناعهم بمزايا مؤسسته التي لم يقنع بها سوى لكسب رغيفه ومحرقة أنفاسه اليومية. فيظل على أهبة الحب بين سيجارتين، يشعل إحداهما لها،

والأخرى يعذب بها أصابعه التي تجرأت على لفظ كل ما كان؛ خائفًا أن يظلا حبيسي صوت وشاشة، لا تجمعهما التوبة في فراش، ويسميها البعض "زواجًا".

- حبيبتي.. أنا نادم!
- إذن فلنتُب.
- دُلّيني...؟!
- نعلن أنها ستكون المرة الأخيرة، ونستغفر الله ولا نعود ..

تصاعدت سحابة في الأفق، معلنة مطرًا شديدًا، والحنين يعلو بمقياس ريختر، وليس يريحهما الشوق والانتظار. يسرعان إلى ملاجئهما التي يحتاطان بها كل حرب لذة. يبحثان الدفء في عيون بعضهما..

تمنحه القبلة الأعنف، ويهديها جهنّم سريره، فتسحبه شظايا في جسدها الممدد أمامه عبر شاشة، يحسّها ولا يتحسسها، يعبق رائحتها ولا يعلق رذاذها بجسده، يقفلان أذنيهما وعينيهما عن العالم، ويتسارعان نحو لحظتهما المفضّلة.

أصبحت التوبة لعبتهما المفضلة التي يحاولان فيها ربح الله، تماما مثل همس جسديهما محاولين ربح اللذة .

أصبحتُ عاهرة وانتهى الأمر

أشرب نخب الثالثة والثلاثين من عمري، وأقف في منتصف الشارع، أجابه احتمالات موتي، وأفكر "أنا لا أحد".

كم مرة حاولت ألا أصل هنا، واحتميتُ بأشلاء حُبنا، وطلبتُ مساعدتك على جمعها ورتقها بعناية. لكن قل لي، ماذا فعلت أنت؟

كنت تقول "أحبك" وتتركني على أرصفة الانتظار البغيض، حيث يمر كل العشاق عني موشحين بابتساماتهم واشتباك أياديهم ووعود الأبد، وأنا أتعلم الغيرة، والغيرة تحولت حسدًا، والحسدُ إلى حقد.

تركتني .

صرتُ أبشع أمام المرآة، وجسدي أصبح معطوبًا بلا علامات اشتياق. وليس لعطري رائحة، مهما حاولت دسّه في قمصاني وفساتيني، أو نثره على مكامن النبض في جسدي، فكيف تكون له رائحة إن لم تعانقه حواسك؟

الشهر الأول للفراق الأخير مرّ بسلام. والثاني بصعوبة. والثالث، كان محمومًا بالشوق. لم يكن أمامي سواه، الذي قال لي كل ما لم تقله، ووقف إلى جانبي حين افترسك الغياب .

فكيف أرد له الجميل؟ هل أمنح قلبي فرصةً أخرى؟! لم يكن الأمر بتلك الصعوبة. خرجنا سويًا، وقضينا أوقاتا جميلة على صوت أرجيلته وطعم الشاي الثقيل المحلّى بالأسى، خاصّتي.

تطوّر الأمر، وأصبحت الأماكن العامة تزعجنا، فامتطينا المسافات بسيارته، حيث نستطيع سرقة بعض القُبل لا بل الكثير من القبل ..

قال إنه يحبني.. وكما صدقتك، صدقته. ووعدني بالزواج، وأيضًا صدقته. لذا لم تعد تكفينا المسافات، والشهوة المتصاعدة بيننا أشد من أن ترويها القبلات المرتعدة في سيارة.. دخلت شقته وأعطيته أكثر مما توقعت .

هل كان أفضل منك؟ تركني أيضًا

كيف أنظر لنفسي؟ أنا لا شيء !

بعد السقوط الأول لا شيء سيرفعني، وكل الأفكار تسحبني إلى تحت. وفي ذلك الحين، عندما وزّع الله بعض الرضى والقناعة، ليتمتع بها الفاقدون والمرضى والمشردون والقانطون من رحمته، لم تصلني حصّتي، فمشيتُ إلى حتفي سريعًا.

أنا لم أكن "ابنة شوارع" كما يقولون عني الآن، ولم أرغب يومًا في أن أكون النموذج الذي تحذر الأمهات منه بناتهن، حين تقول الواحدة منهن "إياك والسير معها فإنها ساقطة.. والصاحب ساحب !"

أصبحتُ عاهرة وانتهى الأمر.

أبي كان مثل كل الناس، يصلي ويصوم، ويحثنا على التعلّم. وأمي كانت تنهرنا إذا أخطأنا، وتدلنا على الصواب، وتقول دوما "الله يستر عليكن"، كجميع الأمهات .

كنت أظن أنني سأنساك بعد انتفاضة على سرير رغباتهم، ورغبتي، فأنا أيضًا أعجبني الأمر، لكنني رأيتكَ بيني وبينهم، كنت ثالثنا الشفاف.

أصبحتُ عاهرة وانتهى الأمر.

أقفُ في منتصف الشارع، في منتصف العمر، في منتصف المسافة بيننا، ولا أنتظرك.

ماذا أفعل؟ هل أبقى فتحطمني المركبات المُسرعة، وأتلاشى، أم أعيدُ خَلقي من العَدم؟

أرضُ المُتعة

قامَ المزارعُ فلاح بحفرِ حفرةٍ كبيرةٍ في أرضِه، ثم فكرَ كثيرًا "ماذا سأفعل بها؟".

بعد تفكيرٍ مُطَوَّل ملأها بالحطب، ثم أعلنَ عن مسابقةٍ بين حيواناتِ مزرعَتِه، وقالَ لهم إن الخاسرَ سيُلقى في الحفرةِ وتُضرمُ النيران به، وهذه المسابقةُ إجبارية، أي ليس منها مَفر! استراحَ فلاح على كرسي يُراقبُ استعدادَ الحيوانات.

تشكلت التحالفاتُ بينَ كُلِ فصيلة. إلا أن الكلبَ ظلَّ وحيدًا فشكل حلفًا لوحده ضد الجميع. والمسابقةُ التي ستستمر ليومين تتنوعُ بين الجري والسيرِ على الماء والوثبِ العالي وجمعِ البذور، وجرِ العربات.

بدأت المؤامراتُ والحيل. الكل يريد ألا يُحرق. لكن لا مفر، فالمسابقة قائمة، وفلاح يُراقب من بعيد دون أن يراهُ أحد، سعيدًا مستمتعًا، والنار بانتظارِ الخاسر. لا مفر، لقد وُجدت لتُحرِق، أو لشيءٍ آخر، لكنهُ لم يَخطُر على بالِ فلاح.

ضمير مستتر

كانت رائحةُ الجبنِ البلديّ تسيطرُ على هواءِ المدينة، الذي تنفسهُ آلافُ المارةِ في شوارعِها، وعجّت الساحاتُ بهُواةِ التصويرِ الفوتوغرافي، وآخرينَ بتذوقِ حُلوِها الذي أكسبها شهرة إقليمية. وكنتَ على مقربةٍ من تلك الحشود، تستَجمِعُني بذاكرَتِكَ وعينيك، وأنا لا أراك.. حتى همستَ باسمي مناديًا.

سرقتُ الوقتَ من القدرِ لأحظى بالقليلِ منك. وكنتُ حذرةً من ملاحظتكَ لانفعالي وفرحِي برُؤيتك.

اتفقتَ معي على جولة، بالأحرى على ذاكرةٍ مقبلةٍ سأحنُ لها وَحدي، لا بأس.. فالسيرُ بمحاذاتك كافٍ، أضف إليه أنَ صوتكَ وكلماتِكَ وانفعالاتِكَ في وصفِ الأماكنِ التي تُحبها ستكون موجهةً لي أنا. أنا أغرقُ في النِعَم يا عبدَ الجليل!

قلتَ لي بهدوءِ المتماسكِ بعد غضب "يا خُزَيمَة.. إن اثنينِ يبحثانِ عن بعضهما لن يَجدَ أيّ منهُما الآخر" تنبيهًا لي بأن عليّ البقاءَ في مكانٍ حدَدتُهُ لشخصٍ يبحثُ عني، ولا أفتعلَ الدوران كي أسبِقَه، وحيث أنكَ لم تقُلها بقصدِيّةِ عاشق، فهمتُها أنا بمكرِ امرأةٍ تنتظرُك، وخرجتُ بنتيجة أن "على أحد الطرفين البحثَ عن الآخر كي يلتقيا"؛ لذلك فضلتُ أن أكونَ هذا الآخر!

أستعيدُ معكَ لحظاتِ دهشتي الأولى بك، حين ناقشتَ أستاذ الرياضيات بطريقة لم تلفتني من أحد قبلَك، لألاحقَ صوتكَ في القاعةِ الكبيرةِ التي تتسعُ لنحوِ (مئةٍ وعشرينَ) ١٢٠ طالبًا في كليةِ العلوم، وحينها أبصَرتُك، ولم أحرك رأسي حتى أنهيتَ مداخَلَتَك.

والآن تصحَبُنِي بذاتِ الدهشةِ إلى سلالمَ ودكاكينَ ومساجدَ في نابلسِ القديمة، دون أدنى محاولةٍ مني لمقاومة هذا السحر.

تُحدثني عن ارتباطكِ بتاريخ الأماكن، وصداقَتِكَ مع حجارةِ بيوتِها العتيقة، ونوافِذِها المُدلّاةِ بعنايَة، دونَ أن تفتحَ ستائِرَها للغُرباء، أو يتبخرَ من خلالِها صوتُ امرأةٍ يُدلل على حياةِ أصحابِها، فوحدَها النباتاتُ النَضِرَة، والمياهُ المتدفقةُ من أنابيبِ الصّرفِ الصحيّ تُعطينا إشاراتٍ بأن حياةً تتنفسُ داخل تلكَ الجدران العتيقة.

تحيطُ بقلبكَ كل زاوية، وتَشيحُ بسَمعِكَ عن أجواءِ الأعراسِ في المدينة، ليخترقَ صمتي أذُنَيك، فوحدهُ القادرُ على حثِكَ متابعةَ الكلام، ونسجَ التفاصيلِ التي أُعنى بها كي أحفظها آجلًا عن ظهرِ قلب، لا كي أقف في محطاتِها وأُدقِقَ بمدى صوابِها أو خطَئِها.

أغارُ حينَ نلتقي بإحدى صديقاتِكَ وتخبِرُهَا أنكَ اشتقتَ إليها ثم لا أسمعُ شيئًا، ولكن من حركةِ يديكَ بيننا أعلمُ أنكَ تُعرّفُهَا بي، ثم يعود سمعي حين تغيب هي بين المسابحِ والشالاتِ والقلائدِ المعلقةِ في أحدِ المتاجرِ الصغيرة.

نمشي ونمشي، ثم تتوقفُ عند رجل يبيع المثلجات (سلاش)، لتطلبَ لك صنفين معًا، فبدا كأسك بلوني الفراولة والبرتقال، وأنا اكتفيتُ بالبرتقال، إذ كان هذا النوع من المثلجات جديدًا لي، ولا أعرفُ الخدعَ التي قد يقوم بها عشاقُه.

انتهى ذلك النهار بضحكتكَ مودعًا، ولم أتوقف بعدها عن انتظارِ مصادفةٍ أخرى تَجمعُكَ بي.

بعد عامين، كنتُ أقتلُ انتظاري لموعدِ عمل بقراءة رواية "عالم صوفي"، في ذلكَ الممرِ الذي يشهدُ يوميًا دخولَ وخروجَ ونميمةَ الطلبةِ والأساتذةِ بين كليةِ الهندسةِ ومبنى مجلسِ الطلبة. ثنيتَ رأسكَ قربي حتى صار وجهُكَ مقابلَ وجهي وحين ذكرتَ اسمي، التقت عيناي بعينيكَ المبتسمتين، وبدأت تسألُني أخباري.

منحتكَ ابتسامةً باردة، وأنتَ كعادَتِك، رحلت.

سبعةُ أعوامٍ مضت. كنتُ أمشي بسرعة بين نداءاتِ بائعي الخضارِ وسائقي مركباتِ الأجرةِ وأوقفتني أيضًا باسمي، ثم سألتني عن أخباري التي كنتَ تعلم أهمها عبر "الفيسبوك".

سررتَ بلقائي وزادكَ الحماسُ لتخبرني عن مشاريعكَ الجديدة، وبأنك ستُعرّفني على زوجَتِكَ التي تعشقُ شيئًا اسمه نابلس، وأنا أجيبُك "نعم بالطبع، يسرّني ذلك." وبالفعل أسعدني.

عامٌ ذهبَ بعد السابع، أتذكر كأسَ مثلجاتِك، حين أقفُ أمام "ماكينة السلاش"، ثم أختارُ صنفًا واحدًا، بلون واحد لكأسٍ واحد.

المجنونة

واسعة هي الأرض، ومكتظة الشوارع التي تسير بي.. إلى أين؟ لا أدري.. أبحث عنكَ يا ولدي، وأبحث عن أختك خديجة بين الوجوه، ولا أجدكما. أين أنتما عنّي وأين أنا منكما؟ !

عائشة.. إبراهيييم.. سعاااد.. محمود.. أين أنتم؟ ذهني تشتت بين المارّة الذين يُلصقون بوجهي النظرات الغريبة.

أصرخ.. وأشتمهم "يا ابن الشرموطة"، "يا قحبة".. وامرأة تقترب وتطلب مني أن أخفي شعري لأن "الإشارب" سقط على كتفي أثناء صراخي، هي لم تسألني "ما بك؟" كل ما يهمها ألا يرى الرجال شَعري..

البارحة جارتنا كريمة قالت لـ"كنتها" إن أولاد فوزية تركوها، ومنذ خمسة أعوام لم تصلها أي رسالة منهم أو حتى مهاتفة. تشمتُ بي هذه الجارة، لكني أقرا رسائلكم دائمًا، وفي العيد الماضي اتصل على إبراهيم وقال إنه سيأتي ليأخذني معه إلى الكويت، وأنا أنتظره.

وأم حاتم ابنها في الكويت أيضًا، لكن زوجها مات بالسرطان، وخديجة كانت تقول إنه مرض معد، لأن أبو على أغلق دكانته وبعدها الحارة أصبحت مريضة، فقد مات الجميع.. وبائع الحليب الصغير على دهسته سيارة بينما كان يركض خلف "قنينة" وقعت منه في الشارع، لكن "الله يسامحه" فقد انكسرت جميع "القناني" الباقية.. من سيبيع الحليب ويسقي البقرة في دارهم الآن؟

اتصل إبراهيم وقال.. لا بل حدثني عن أولاده لكن لم ينقل لي سلامهم، ربما كانوا في المدرسة. الحياة صعبة يا سعاد، والناس تبعث لي الأكل يوميًا، لكنه تعفن في الثلاجة، أنا آكل وحدي، والباقي أتركه للشياطين، إذ أنني وكما يقولون أتقاسم مع الشياطين كل شيء، حتى ملابسي، تخيلي؟!

لم هذا المسجد مكتظ؟ اليوم ربما الجمعة.. لا فالشيخ لم يقرأ بصوت عال. "أنداري"! لم هذه المرأة تنظر إلي هكذا بينما أحدثكم؟ إنها لا تراك يا عائشة وأنت تلبسين "مريول" المدرسة وتقبلين يديّ قبل الذهاب صباحًا، هل تُقبل بناتك يديك؟ هل ستغيبين عن فكرهن في مشاغل الحياة كما غبتُ أنا اليوم؟

أسمع امرأة "توشوش" رفيقتها بينما آكل "ساندويش" أعطاني إياه صاحب محل، وتقول "شكلو

مالهاش أهل؟ الله يحسن ختامنا ".

هذا ما يتمناه البشر جميعا، أو ربما البشر الذين يعيشون في بلادنا، حسن الختام. يومها حين هجم اليهود على قريتنا كنت في التاسعة من عمري، نسيتني أمي حين هربت وأنا كنت ألعب مع الصبية في الحارة، لم يخبرنا أحد يومها بضرورة الهرب، لكن ما إن رأينا الناس تركض حتى ركضنا، وجد جميع الأطفال أهلهم إلا أنا، وعادل ابن صاحب الدكان كان يحب خديجة، لكن "الله يسامحه أبوك" يا محمود رفض تزويجه لها، فدست لنفسها السم في الطعام وماتت، وحينها قلنا إن عقربة لسعتها، كي لا "ننفضح" وانتهى الأمر .

لكن منذ ذلك اليوم، ودمي بارد في عروقي لا تشعله أي فرحة .

الظلام يملأ السماء، حتى أنني لا أستطيع رؤية القمر، ولا أعرف كم الساعة، فمنذ رحل أبوكم لم ألبس ساعة .

لاااا.. الضوء أسرع مني.. الضوء أسرع مني.. إبراهيم، سعاد، محمود عائشة، خدييييجة.. أبعدوني عن الطريق، العجلات تقف فوق صدري، ولا أحد هنا يساعدني.. السيارة تذهب. أنا وحدي في الشارع، لون أحمر على رجلي وعلى يدي.. خدييجة.. خ.د. ييجة. خ.د .

نيفرتيتي ترقص التانغو

"كم أكره هذا المنظر، حين أشاهد نفسي في المرآة فجأة أثناء الاستحمام، هذا البخار اللعين لم يصلها بعد، وربما لا يعلم غيظي من رؤية نفسي عارية مع هذه التشوهات التي تملأ جسدي، من كرش أسفل صدري، وحروق على ذراعي، وندب على فخذي. تبًا للمرآة، وشكرًا للملابس "!

- أمي أمي.. أحضري لي المنشفة
- كعادتك تنسينها دائمًا.. يجب أن تتعبيني في كل مرة
- اللي بسمعك بقول أبصر شو طالبة.. كلها منشفة !

"حتى هذه تستكثرها والدتي علي، أن تحضر لي المنشفة"، تردد نيفرتيتي بينها ونفسها.

تحضرها أمها المنشفة، فتغلف نيفرتيتي جسدها بها كما قطعة الحلوى، وتُسرع نحو غرفتها.

ترتدي ملابسها، وتنادي على والدتها كعادتها بعد كل استحمام "متى ستكسرين هذه المرآة المأساة في الحمام؟ قولي لي؟"

- لا حول ولا قوة إلا بالله، كم مرة قلت لك يجب أن تثقي بنفسك وتتقبلي ما أنت عليه
- أن أتقبل يعني أن أنسى، ولا أريد النسيان، لكني أيضًا لا أريد رؤية الجروح
- احمدي الله فهناك آلاف من البشر يعانون من الحروق والندوب والأمراض الخبيثة ...

وقبل أن تكمل والدتها الحديث في نفس الموضوع ونفس الكلمات، تتجه نيفرتيتي إلى المطبخ، متمتمة "جِدي غير هذا لإقناعي" ثم تغير الموضوع متسائلة "ما علاقة الاستحمام بالجوع؟ كم أنا جائعة".

تجد في الثلاجة القليل من المعكرونة التي طبختها أمها البارحة وقليلًا من الباذنجان والكوسا المحشي. تسخنهما في "الميكرويف"، هي حتى لا تستطيع الصبر أمام الثلاث دقائق التي حددتها على الجهاز، وقبل أن ينتهي الوقت، تضغط على زر "stop"وتتناول الطبَق ثم تبدأ، والمنشفة لا تزال تغطي شعرها، كلما سقط طرفها على وجنتيها، رفعتها بيدها التي لم تتسخ بعد، وأمها تضحك من بعيد أمام التلفاز، وتقول لها ساخرة "تكرهين المرآة بسبب الندب ووزنك، ولا تسعين لا للتقبل أو للتخفيف من وزنك.. عجبي منك!"

ترّد نيفرتيتي على أمها مصحوبة كلماتها بصوت مضغ الطعام إلى جانب نظرة ساخرة "أنا

أكره الرجيم لأنه يعني الحرمان لكني أيضًا أود لو أكون نحيفة، فليتكفل الله هذا الأمر، أليس هو صاحب المعجزات!".

- أستغفر الله العظيم!
- تستغفرين كما لو أنني كفرت.. أنا أقترح عليه أن يكون مرنًا في الخيارات لا أكثر.

تكمل المشهد المعتاد بالذهاب إلى الميزان بعد الانتهاء من تناول الطعام، ونظرات أمها تلاحقها، ثم تقول نيفرتيتي بصوت مرتفع "أووف 75 كيلو!! متى أصبحت هكذا؟" تضحك وتضحك أمها معها.

تحدد نيفرتيتي منبه ساعتها لوقت الاستيقاظ من النوم تمام 7:45 حيث يلزمها 15 دقيقة للاستيقاظ بعد الرنين، هكذا عوّدت نفسها، كما تأقلمت ساعة جسدها، التي توقظها قبل المنبه أحيانًا.

ستذهب اليوم للبحث عن عمل، الشيء الذي تقوم به منذ قرابة سبعة شهور، لكن المختلف اليوم أثناء تقليبها للصحيفة المجانية التي تصل البيت كل صباح، وجود إعلان لتدريب في "رقص التانغو" إلى جانب إعلانات الوظائف والشقق.

لفت انتباهها إعلان لدورة في رقص التانغو، ولم تفكر مرتين قبل أن تبحث في المدينة عن عنوان مركز "ماكاروفا"، الطابق التاسع، عمارة "السنابل"، وتجده بسهولة.

وأمام مرآة المصعد، تفكر نيفرتيتي ألف مرة بشكلها كيف سيرقص "التانغو"، وهي التي لا يظهر لها "خصر" حتى، لكنها تضغط الرقم "9" وتستمر .

ينفتح الباب أمامها لترى عديد الفتيات في تدريب لليوغا، تسأل من ظنتها مشرفة أو مسؤولة عن المركز ربما، وتأخذها جانبًا، لتستفسر عن المواعيد والسعر وعدد الساعات، يعجبها الأمر، فالفراغ لديها يتسع لكل شيء، ولأي شيء، ثم تضع اسمها على قائمة المشاركين .

وفي طريق العودة، يلتفت الهواء لضحكتها، وتتدفق الشمس بين خصلات شعرها الكستنائي المجعد القصير، فيبدو أكثر لمعانًا بلونين إضافيين من ضوئها.. تمشي بخفة لم تعهدها، وتفكر "يبدو أن الحياة ستبتسم".

وعند دخول نيفرتيتي البيت، تفاجئها أمها بالسؤال "بشرّيني، هل وجدت عملًا؟" تضحك في الرد: نعم وجدت!

- أين؟ ما هو؟ كم الراتب؟ وما....
- مهلا مهلا، سأرقص هههههه
- ماذاااااا؟!!
- انتسبت لدورة في رقص التانغو، هل عندك مانع؟

تتأفف والدتها، وتنقل امتعاضها لزوجها العائد آخر النهار من عمله في وزارة السياحة والآثار، فيضحك بدوره "أنا لا مانع لدي، لكن بشرط، ألّا تعودي بعد الحصة الأولى باكية لأنك لم تنسجمي

ترد نيفرتيتي من داخل غرفتها: اطمئن سأستمر .

ويقول والدها بصوت منخفض لأمها "دعيها تجرب، لا تعلمين.. ربما نسيت الأمر الذي يزعجها ويكدر صفوها منذ سنين".

تتحول الأيام في عمر نيفرتيتي التي ستكمل الثامنة والعشرين بعد شهر، إلى خطط، كل يوم خطة لما بعده، حتى موعد الدرس الأول .

ورغم الصيف الحار، تختار نيفرتيتي فستانها الواسع ذا الأكمام الطويلة، الذي يصل أسفل ركبتيها، مرتدية حذاء خفيفًامن دون كعب، تبدله في معهد "ماكاروفا" بحذاء التانغو، وفق ما أسمته، وهو بكعب رفيع متوسط الارتفاع، وثلاثة قشطان جلدية من الأمام تكشف أصابعها المكوّرة، والجزء المتبقي من قدميها، قبل أن ينغلق على كعبي قدميها من الخلف.

مدرب ومدربة للتانغو، فهي رقصة ثنائية لا تتم دون شريك، ونيفرتيتي محاطة بالفتيات النحيلات ذوات القوام الممشوق، اللاتي يرتدين "أجمل ثيابهن" ربما، وبشبّان جاؤوا مهملين شكلهم، بأطوال وأجسام متفاوتة الجمال، ربما هذه الثنائية الموجودة في العادة، أن الإناث يعتنين بمظهرهن أكثر، بينما الذكور يخرج معظمهم دون النظر إلى المرآة حتى.

بعد المقدمات بين لغة عربية وإنجليزية بسبب اختلاف لغات المشاركين، وتعريف كل شخص عن نفسه عبر اسمه ومجال عمله أو دراسته يبدأ الدرس الأول بتعليم الخطوة الأولى، وهي المشي على طريقة التانغو.

"الصدر مشدود إلى الأمام والرأس مرفوع باستقامة والعنق مع الكتفين يشكلون زاوية قائمة" تقول المدربة للإناث أثناء تجوالها بينهن، وتشد على سواعدهن حول سواعد الشبّان، ونيفرتيتي

تتمتم "يا حبيبي. كيف سأتقن الأمر!"، وما إن اقتربت منها المدربة وقرّبت صدرها على صدر الشاب الذي يرافقها في تعلّم "مشية التانغو"، حتى جزعت وأفلتت يديها بسرعة، ووضعتهما على رأسها كأن شيئًا مسّها.

اليوم الثالث على "شبحها" في معتقل "حوّارة" الإسرائيلي قرب مدينة نابلس، 13/4/2007، هي لا تنسى هذا التاريخ..

يأتي الضابط الإسرائيلي في سلسلة عذابات نفسية أثناء التحقيق مع نيفرتيتي، التي اعتقلت أثناء مظاهرة طلابية في ذكرى يوم الأرض استمرّت سيرًا على الأقدام نحو المعسكر، وكانت بدورها تُلقي الحجارة على الجنود.

يقترب الضابط منها جسديًا، لتصبح أنفاسه متداخلة مع أنفاسها، ودموعها تتساقط تباعًا، ثم يقرّب شفتيه من عنقها، فتحرك رأسها برفض عنيف وتبصق في وجهه، فيضربها، مرة، مرتين، ثلاثًا.. ويستمر في الضرب، ثم يركلها بين فخذيها.. ويخرج تاركًا إياها مع نزيف الدم في أنفها وفمها.

تبتعد نيفرتيتي بما يكفي عن الشاب الذي تراقصه وتطلب استراحة قصيرة.

لم تكن تتوقع أن تستعيد الأمر في موقف مشابه. هي ترى وجه الضابط في وجوه الشبّان الذين يتتابعون في الرقص معها، حيث يتم تبديل الـ "Partner" بتسلسل بين المتدربين والمتدربات، لأن رقصة التانغو وفق ما يقول المدرب "اجتماعية Social dance"، فلا يبقى الشريك نفسه طيلة الحفل، كما يجدر بكل راقص أن التكيف مع مختلف المشاركين في الرقص، باختلاف أعمارهم وخبرتهم في الرقص.

الطريق إلى البيت أصبحت أطول مع تسارع الذكريات في رأس نيفرتيتي، التي تركت الدرس وجرت سريعًا، لتقرر عدم العودة الأسبوع المقبل.

وفي المساء اصطادت عينها فيلمًا يتعلق بالأرجنتين في شاشة "mbc2" فقالت لوالدتها "توقفي توقفي.. دعينا نشاهده معًا"، كان الفيلم بعنوان "Imagining Argentina" تابعته بشغف، أعادها إلى درس التانغو، رغم أن الرقصة جاءت في آخر الفيلم، حيث طغت مشاهد التعذيب والاغتصاب من قبل جنود النظام الديكتاتوري في الأرجنتين أوائل سبعينيات القرن الماضي، إذ تمحور موضوع الفيلم حول المختطفين رجالًا ونساءً وطلبة مدارس. كل من يُعارض النظام يختفي!

القصة أرعب نيفرتيتي وأعاد لها ذاكرة الاعتقال، حيث انتابتها حالة من التقمص تجاه المختطفات من النساء، بخاصة ابنة البطل (أنتونيو بانديراس) الذي قام بدور كارلوس، إذ لاقت حتفها مع شابات أخريات بعد اغتصابهن، برصاص رشاشات النظام.

لكن الفيلم نفسه، أعاد لنيفرتيتي رغبتها في تعلّم التانغو، الذي يروي بموسيقاه الحزينة حكاية شعب يعيش الأسى، تمامًا مثل شعبها.

عادت نيفرتيتي للتمرين. وفي كل درس كانت تتعثر بمشكلة الاقتراب من الشريك.

يناديها المدرب، ويطلب منها التمرّن أمام الحائط، وجعل يديها في وضعية الإمساك بساعديّ، مع دفع صدرها للأمام والسير للخلف بنفس الحالة، وحين قامت بذلك، علا صوت المدرب "برافوو"، مردفًا "ها أنت تتقنينها وحدك، لم إذًا لا تستطيعينها مع شريك؟".

تقترب منها إحدى الشابات المشاركات، ثم تهمس في أذنها "أنا أعرف مشكلتك، أنت تخجلين من الذكور، لأني لاحظت حين تكون شريكتك أنثى تتقنين الحركة.."، تجيبها نيفرتيتي مبتسمة "بل أنا خائفة..".

الطريق مجددًا، هي المساحة التي تقلّب ماضيها.

"الضرب المبرح، وإطفاء السجائر على مناطق مختلفة في جسدها، وتغطيس رأسها المتكرر بالماء أثناء التحقيق، بغية الاعتراف على الشبّان الذين ينظمون المظاهرات"، صور تبدو كتتر مسلسل، تُسارع نبض نيفرتيتي. وهاشم، الشاب الذي أردوه قتيلًا على مرأى عينها في المظاهرة. صرخت بأعلى صوتها للنجدة فور مشاهدته يسقط والحجر يسقط من يده، ملثمًا بكوفية سوداء. "هاشيييييييييم" تصرخ، وتبكي، قبل أن يأتي الإسعاف.

استخدم الجند الرصاص الحي، واخترقت الرصاصة رأس هاشم فمات في مكانه. كل ذلك في فوضى غيوم الدخان التي يحدثها الغاز المسيل للدموع، والقنابل الصوتية، وهتاف الطلبة. لم يكتمل المشهد حتى سحبها جندي من يدها ثم قيّدها وأدخلها في الجيب العسكري مباشرة".

أصبح يوم الأربعاء، الأهم في حياة نيفرتيتي، التي صارت مع كل درس تتحرر من إحدى نُدب الذاكرة، كما لم تعد تخشى ارتداء الفساتين ذات الأكمام القصيرة، أو المفتوحة من جهة الصّدر، فآثار الحروق عليها، التي طالما أخفتها بالملابس مصدر فخرها الآن.

كان المحقق الإسرائيلي يطفئ سجائره على صدر نيفرتيتي وذراعيها.. وكلما اشتد الألم عليها صرخت بعالي صوتها فيصرخ هو في المقابل "اعترفي.. من يستحق عذابك؟ إذا اعترفتِ سنُفرج عنك.." وجوابها البكاء .

كان جسدها غضّا في الثانية والعشرين من ُعمره، إنه عام تخرّجها، الذي تأخر ثلاث سنوات أخرى في المعتقل، وسنة إضافية بعد الإفراج عنها. وهي منذ سنتين تبحث عن عمل.

استمر التحقيق شهرًا ونصف مع نيفرتيتي، كان في زنزانة معتمة، رمادية اللون، وفق ما بدا مع الضوء المترنّح فيها، الذي يخفت أيامًا ثم تشتد إضاءته أيامًا أخرى، كما تتم المراوحة بين العتمة والضوء خلال ساعات اليوم الواحد، كنوع من الإرهاق البصري والجسدي . أما جدران الزنزانة فخشنة الملمس ومن الصعب الاتكاء عليها، مع فتحة في الأرض تمثل مرحاضًا.

في الأسبوع الثاني من التحقيق، بينما كانت في وضع "الشبح"، حيث ظهرها إلى الحائط ويداها مفتوحتان على مصراعيهما مربوطتان إلى الخلف، وساقاها مفتوحتان مقيدتان بسلسلة في الجدار، بدأت تنزف دم الطمث، وتشعر بالوجع ينخر فخذيها، ويصعد إلى بطنها وصدرها، وتتمنى لو أن يديها حرّتان فتستطيع الضغط على الألم في مواطنه كما كانت تفعل عادة قبل الاعتقال، والوجع يزيد مع اشتداد البرد في الزنزانة. يأتي الضابط لاستكمال التحقيق معها، فيرى الدم ينزف بين ساقيها، فيعبر عن اشمئزازه وقرفه، تتوسله كي تذهب إلى الحمام أو يحضر لها الفوط القطنية، لكنه يراها فرصة سانحة لابتزازها "اعترفي وأنا أحضر لك ما تشائين.." نظرت نيفرتيتي إلى نفسها وبكت، "يااااااا رب موجوعة أنا.. بردانة.. تعبانة.."، ليرد عليها الجندي "الإرهابيون لا يساعدهم الله.." ويختفي خلف نحيبها مقفلًا الباب، تاركًا لها مساحة العذاب.

في كل درس يبدأ المشاركون بالسير في خطوات التانغو، ثم يتعلمون حركة جديدة. اليوم لفتت نيفرتيتي انتباه المدربة، وقالت الأخيرة "أنت تتحسنين في الأداء"، ما يشع البهجة في عينيها.

حركة اليوم هي "الأوتشو"، تعني رقم ثمانية في اللغة الإسبانية.

يقول المدرب "التانغو قائم على ثلاث: الارتباط الصحيح بين الطرفين، ومشيته الخاصّة، والأوتشو، ومن أتقنها استطاع العبور إلى عالم التانغو بسلاسة".

حين كانت المدربة تدير الموسيقى، وتطلب من المتدربين والمتدربات التشابك والاستعداد لخطوات التانغو، كان كل شخص تقريبًا يعرف الآخر، بالتالي لا أحد يقول لنيفرتيتي "هل

تسمحين بهذه الرقصة" عبر الإشارة بيده، الشيء الذي يفعله عادة الشاب حين يدعو فتاة إلى الرقصة.

وعلى غير العادة، يلتفت إياد نحوها، ويؤشر بيده داعيًا إياها للرقص. وإياد كان شابًا هادئًا مضحكًا أحيانًا، لأنه يمشي بسرعة أسرع من الموسيقى فيتعثر بأقدام الشريكة، ولا ينظر إلى عينيها قط، إنما ينظر إلى السقف، وإذا ما نسي ونظر بعينيه الذابلتين الواسعتين إلى عيني إحدى المتدربات أثناء رفقتها في الرقص، يحمرّ وجهه خجلًا.

لحظة الثقة والسعادة التي عاشتها نيفرتيتي حينها، كانت عالية جدًا، حيث أدركت أنها أزالت حاجز الخوف بينها والمتدربين الشبّان، كما أزالت حاجز الإحراج من نُدبها التي توشم جسدها.

تتعلّم الأوتشو. تضحك وإياد حين يتعثّر، وتقول له "أنت ترقص مع امرأة يا إياد ولا تلعب كرة القدم الآن. هناك فرق". يضحك كلاهما. ويكملان "cross" لقدميها ثم إزاحتهما على شكل "8" على الأرضية، واستدارة خفيفة لجذعها، الذي تحرره فجأة لتؤدي حركات أخرى لم تتعلمها في التدريب، إنما شاهدتها عبر "يوتيوب".. وموسيقى "Roxanne" مستمرة في رأسها.

سأقصُ شَعري

خمسةُ أعوام مرّت على العمل مع شركة "كروكي" للتكنولوجيا، وعائشة تُقبل على الصباحاتِ بشغفٍ لا يقُل عن الإقبالِ على قطعةِ شوكولا محشوّة بالكراميل، إلا أنها ومنذ عام فقط، أصبحت تتساءل كثيرًا، وتقرأ أكثر باحثةً عن إجابة.

كل يوم، منذ عام.. تنظرُ عائشة إلى المرآة، تتحسّسُ شعرَها الناعمَ الطويل، الذي تعتبرهُ هُويتها، وتفكر مطولًا "أليس من الظُلم أن أغطيه الآن؟"، وتسأل نفسها "إذ لم يكن شعري جميلًا هل سيعنيني الأمر؟"

تفرده على كتفيها، تقتربُ أكثر من المرآة لتشعرَ كم هي جميلة به، ثم تغصّ في حلقها دمعة، حين تعيد تكويمه في القطعة الصغيرة الخاصة بضمّ الشعر (قمطة)، وتضع فوقها الشال الكتان.

يوميًا، منذ عام.. تتمنّى أن تتخلّصَ من الحجاب، الذي ترتديه منذ 18 عامًا.

في إحدى المرّات، بينما كانت تتجوّل مع صديقتها الإسبانية دولوريس في الخليل القديمة، تعرّفَ كلاهما على مجموعة من الفتيات، بينهن واحدة عمرها 16 عامًا لا ترتدي حجابًا، فسألتها دولوريس عن سبب ذلك فيما الأخريات بخلافها، فأجابت سريعًا بنبرة واثقة "لأنني أحب شعري."

هذه الإجابة ظلّت عالقة في رأس عائشة، كيف نطقتها فتاةٌ لم تخرج بعد من بوابةِ المدرسة؟ وهي في السادسة والثلاثين لا تستطيعُ البوحَ بها؟

وأمام المرآة تتساءل "ماذا ستقول أمي وأبي وإخوتي وأخواتي إذا خلعتُ الحجاب؟ ماذا سيقول عني الناس؟" تتخيلُ وقعَ الخبرِ على ذويها، وكيف سيذهب نصفهم إلى الإنعاش إذا ما رأوا

شعرها يطير في الفضاء الخارجي...!

عائلتها متديّنة جدًا، حتى أن والدها يُلقب في البلدة بـ "الشيخ."

عام مضى، وعائشة تمسّدُ شعرها أمام المرآة، ثم تدير ظهرها لترى أنه بات يلامس تلك التقويس الصغير الذي تحبه أسفل ظهرها، وتسأل "لم نغطّيه؟"

صارت عائشة تسأل كثيرًا، عن الحجاب، والصلاة، والصوم، والله.. أسئلتها تخففُ عددَ الأصدقاء، وتحبسُها في غرفتها بعيدًا عن جلسات العائلة، كي لا تُفلتَ منها عبارةٌ بالخطأ أمامهم.

"سأقصّ شعري" تقرر عائشة.

تحمل المقص، وتمسك بشعرها المتدلّي على ظهرها، تمامًا من الجزء الملاصق للكتفين، وتقصّه دفعة واحدة. تبكي وتضحك أمام المرآة.

يوميًا، منذ شهر.. لا تنظرُ عائشة إلى المرآة، لا تفكر كثيرًا، لا تسأل، لا تتكلم كثيرًا.

تأبين سيرين

يتحدثُ حسام مختنقًا ببعضِ الدمعات "هل تعلمين يا سيرين مدى الشوق لميت؟ أنا لا أنفكُ عن الشوق، كما تقتلني حقيقة رحيلك إلى الأبد.. كنتِ الصديقةَ والرفيقةَ والحبيبة.. كنتِ البلاد جميعَها، من نهرِها لبحرِها.. كنتِ لي كل شيء."

والكاميرا تسجّل الكلام لزوجِ سيرين، في يوم تأبينها، التي نهشها الموتُ في حريقِ المقرِ العامِ لمنظمةِ التحرير، حين كانت تصوّر فيلمًا وثائقيًا عن أحد أعضاءِ اللجنة التنفيذية، ورحلةِ حياتِه، من النكبةِ إلى النكسةِ إلى الخروج من بيروت فتونُس ثم العودة مع سلطةِ الحكمِ الذاتي.

اليوم الأربعون على وفاتها، يجتمعُ فيه أصدقاؤُها وزملاؤُها في العمل، إضافة إلى رفاقٍ ورفيقاتٍ من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، إذ كانت عضوةً فيها.

يصعدُ المؤبنونَ إلى المِنصّةِ واحدًا تلوَ آخر، والدموع تترى أمامَ الميكروفون.

تقول سهيلة، زميلتها في العمل بشركة "الحديقة الإعلامية" لإنتاج الأفلام: "ابتسامتكِ المشرقة، وعَمَلُكِ الدؤوب، وحُبكِ للناس، وانحيازُكِ للفقراء عبر تسليط الضوء على قَصَصِهم، والكثيرُ الكثيرُ مما لن ننساهُ في غيابِك.. ومن قال إنَك غبتِ.. أنتِ حاضرةٌ في الذكريات.."

يليها عامر، وهو رفيقها في الحزب، الذي شهدَ معها سنواتِها الجامعيةَ الأولى، وبدايةَ انخراطِها في العملِ الطُلابي.. يمسكُ الورقة كما كان يفعل في خُطَبِهِ السياسية في الأيام الخوالي، ويقرأ: "حين كانَ العملُ الطلابي، كان اسمكِ يتردد.. سيرين.. وفي الميدانِ بينَ الرفاقِ والرفيقات في المظاهراتَ وفعالياتِ إحياء المناسبات الوطنية.. كنتِ تتقدمينَ الصفوف، وفي ساحات العمل، برزتِ المجتهدةَ المتفوقة.. نحن اليوم ليس لننعاكِ، بل لنعليكِ اسمًا خالدًا بيننا."

الكلماتُ والدموعُ ما زالت تتالى في حديث المؤبنين والمؤبنّات، كما تراكمت التوصيفاتُ والألقابُ التي مُنحت لسيرين، فالبعض وصفَها بـ "شهيدةِ الواجب" وآخر قال إنها "الرفيقةُ بجوار الرفيقِ الأعلى" وثالثٌ منحَها لقبَ "المخرجةِ المناضِلة"، كما لم يتوانى رابعٌ عن القول إنها الآن "ملاكٌ عادَ إلى وطنه."!

في هذا الوقت، وبينما الكل يحيا لحظاتِ الخشوعِ أمامَ الذكريات وجزالة اللفظِ والمعنى في حديثِ الأصدقاءِ والرفاق، رفعت امرأة يدها تريدُ الكلام، فتنبّهَ لها عريفُ الحفل، مؤشرًا لحامل الميكروفون بين جمهور الحاضرينَ والحاضرات، ليعرفَ ما تريد. التقطت الأداة وقالت "أنا صديقةٌ قديمة لسيرين، عشتُ معها عامًا كاملًا في سكن الموظفات برام الله، سأتحدثُ عنها.." فابتسمَ لها العريفُ بوقارٍ مصطنع، وطلبَ منها الصعودَ إلى المِنصّة.

بدأتِ المرأةُ الكلام: "اسمي عبير، عشتُ مع سيرين الكثير. أنا أتذكَرُها جيدًا كما تتذكرونها جميعًا. أتذكرُ حين مرضَ حسام بالسرطان وأخبرها بذلك، فصارت تتعرّف على أكبرِ عددٍ تستطيعُه من الشبّانِ عبرَ الإنترنت، تجيبُ اتصالاتِهم اليومية، وتخرجُ معهم للسَهَر، بينما هو الرقم "غير المرغوب".. لا تردُّ على رسائِلِهِ الطويلةِ الغارقةِ في الحبِ والتوسّلِ لها.. وحينَ لم يتقدم أحدٌ لخِطبَتِها مِنهُم، عادت لحسام وتزوجَته، لأنه كان الخيارَ الوحيدَ أمامَها ويملكُ إلى جانبِ ذلكَ ثروةً كبيرةً وَرِثَها عن عائلتهِ في سلفيت...."

"أنزلوها عن المِنصّة"، صرخ أحد الحضور.. وردد عددٌ آخر ذاتَ الصرخة "ما هذا الهُراء.. انزلي عن المسرح.." يتجه عريف الحفل نحوها ليأخذ الميكروفون منها، لكنها تصدّه وتقول له "أنتم جميعًا تعرفون الحقيقة وتنكرونها.. تتغنونَ ببطولاتِها وتعرفونَ أنها سارقة وعاهرة وتستحقُ أكثرَ من الحرقِ ميتة.. إنها تستحق ميتةَ الكلاب،"

تكملُ وهيَ تمشي باتجاهٍ مخالفٍ لعريفِ الحفلِ الذي احتار معها، وبدا له أنها مجنونة!

تقول "لستُ مجنونة.. أنا أقول إنني عشتُ معها.. هذه التي تُعدُ أفلامًا عن الفقراء والجياعِ كانت تستغلهم في كل مرة حين يأتيهم دعمٌ ماليٌ بعدَ نشرِها مناشداتِهم، وتأخذُ نسبةَ النصفِ منه.. هذهِ الرفيقةُ التي تدّعون أنها كانت في جبهةِ العملِ الطلابي، كانت تسرق أموال الطلبة التي تأتي كمنحٍ للمحتاجين منهم لدفعِ أقساطِهم، وتبقي القليل القليلَ لهم ثم تَمُنُّ عليهم كي يصوّتوا لحزبها في انتخابات المجلس.. هذه الحبيبةُ يا حسام ظلت تخونُكَ حتى بعد زواجِك.. فأنت لم تكن الرجلَ الذي يُلبّي احتياجاتِها بسببِ مرضِك.. هذه المجتهدةُ في عملِها سرَقت أفكارَ العديد من زملائِها الذين ظنوا أنها ستُشجِعُهُم لكنها كانت تقوم بها وهم كانوا يصمتونَ كالحملان بعدها، غيرَ قادرين على الجدال وهي الآلهةُ المنزهّةُ عن الخطأ في نظرِ المديرِ الذي طالما نقلت إليه أخبارَ الزملاءِ وأحاديثَهُم حولَه وضدَه مقابلَ مكافآت مالية، ..."

وقبل أن تواصلَ حديثها، جاء عنصران من أمن القاعة، واقتاداها إلى الخارج، وأثناء ذلك، خرج صوتٌ من بين الحضور صاخبًا "نعم.. هذه المرأة تقول الحق.. أنا من هؤلاء الزملاء الذي سرقت أفكارَهُم.." وصَعَدَ صوتٌ آخر "أنا سكنتُ معها أيضًا وسرقت مني مالًا كثيرًا مقابل فواتيرَ مزورةٍ للكهرَباء والماء."

ضجّت القاعة، وتبادل الجميع التمتمات والهمسات. حسام بدا مصعوقًا أمام "الحبيبةِ الوطن"، وعشاقها السريّون بدؤوا بالانسحاب فرادى.. وفي اليوم التالي جاءت عناوينُ الأخبارِ المحلية "تأبينٌ جليلٌ للمخرجةِ الراحلة سيرين" و"أصدقاء ورفاق المخرجة سيرين يؤبنونها بدموعهم"، ولم يأتِ خبرٌ واحد على ذكرِ المرأةِ المجهولةِ التي ألقت خطبَتها اللاذعة في التأبين.

الحريق

رائحة الكاز تغزو الغرفة المليئة بالأثاث الخشبي وتماثيل الخشب التي كانت تردد شادية أنها "أنتيك من المحل الأنتيك في نابلس القديمة"، وكلما رشّت منال منطقة أخرى بالكاز، زادت نشوتها. تنظر إلى المرآة وقد تلوّن وجهها بضحكة لم تشعرها من قبل، إنها ضحكة ذئب.

في ذلك اليوم، عادت منال إلى السكن غاضبة. ذهبت مباشرة إلى الحمام، وحين مرّت بغرفة المعيشة كانت شادية وشريكتهما الثالثة سميحة تشربان الشاي أمام التلفاز، فسألتها الأخيرة "ما بك؟ لم أنت غاضبة". ردّت منال بضحكة ساخرة "المدير هددني بالإنذار وأوقفني عن العمل.. أنا أصلًا قرفت وسأقدم استقالتي قبل أن يصلني الإنذار".

- وماذا بعد الاستقالة؟

- الشيء الطبيعي. أعود لقلقيلية، أساسًا أنا بحاجة لفترة راحة ومشتاقة لعائلتي.

وهنا تدخلّت شادية، لتسأل عن السبب، فتشرح لها منال المهام المتزايدة التي يطلبها المدير رغم راتبها الضئيل في المقابل. وتسارع الأولى القول بابتسامة لا تستطيع إخفاءها "لا تتسرعي. مديرك جيد، وهو صديقي. مديري أيضًا يطلب مهمات كثيرة وأقوم بها لأنه صديقي"، تتعجب منال وتقول "يعني لأنه صديقك يركبك؟ هل يجب أن ندفع ثمن العلاقات الطيبة من جهدنا الذي لا يُقَدّر؟"

تستدرك شادية: لا. هو يصرف لي مكافآت قد تصل شهريًا 400 دولار.

منال: مديري لا يكافئ.

بينما تحذرها سميحة من الاستقالة بالقول "تمسكي بعملك حتى لو كان جمرة؛ فالمعظم لا يعمل، ولا تكوني حمقاء"

- أفضّل ألا أعمل على أن يتم استغلالي..

هههه تضحك منال فيما الرائحة تتصاعد من المزهرية الملونة بورد مصنوع يدويًا من الورق في زاوية غرفة شادية، وتفكر "الحمد لله أنني اتخذت القرار الصحيح وقتها، المنافقة كانت سعيدة بتركي للعمل.."

وأثناء تبديل الثياب قطعة تلو أخرى، تبدأ منال بإزالة المكياج عن وجهها باستخدام سائل التنظيف الذي اشترته من الصيدلية مع شادية، وحينها ضحكتا أمام خجل الصيدلاني وعينيه الجميلتين، وتتذكر أمام المرآة ابتسامة شادية الغريبة أمام خبر استقالتها، كما تذكرت وهي تزيل الأحمر عن شفتيها "قالت إن مديري جيد وصديقها ومدحته كثيرًا الآن.. إذًا لم حرّضتني عليه قبل فترة وقالت إنه كاد أن يحتال على مدير الإذاعة التي تعمل بها بمبلغ مالي أكثر من المستحق لقاء خدماته المحاسبية؟؟ لماذا قالت من قبل إنه حقير ولا تطيقه بينما اليوم أصبح صديقها؟".. وفكرة تجرّ فكرة، والمكياج بدأ يزول "فعلًا إنه مزيل رائع، لم يبق شيء، حتى أن وجهي أجمل".

ستة شهور، مدة العمر الذي قضته منال مع شادية في ذات السكن، وشاركتهما سميحة في ثُلثه، يتبادلن فيه قصصهن اليومية، حين يجتمعن كل مساء أمام شاشة التلفاز، يأكلن معًا ويشربن الشاي، الذي تعدّه إحداهن، كما يتناولن الطعام معًا معظم الوقت.

اعتادت سميحة أن تتحدث عن وقائع الحرب والحصار، تارة تمدح حركة حماس، وتارة أخرى تقصفها بالكلام البذيء، كما تستذكر زوجها الشهيد وعشاقها قبله وبعده، أولئك الذين لم تولهم

الاهتمام. والعديد من الحكايات عن دراستها وحياتها في غزة، وكلمّا رأت ثوبًا سواء فستانًا أو "جاكيت" أو حتى "بيجامة" على منال، سرحت قليلًا فيها ثم قالت "سبحان الله.. لديّ مثلها تمامًا في بيتي"، لكن مع تكرار الأمر صارت منال تقابلها بالضحك وتكمل لها العبارة قبل أن تنهيها. بينما "90%" من كلامها وقصصها "هَشِت" وفق ما تردد شادية، التي تهز رأسها مع إغماضة خفيفة في عينيها بالقول "أسمع كل شيء وأصدّق ما أشاء".

ويبدو أن هذا حال علاقتها مع جميع الناس، ذكورًا وإناثًا، حيث تحاول إرضاء الجميع بالاستماع وأيضًا بمبادلتهم/ن الكلام وفعل ما يطيب لهم/ن، فلا تدري من منهم/ن ستحتاج يومًا!

فصديق يحضر لها الطعام، وآخر يشتري لها الثياب، وثالث يهديها المكسرات، ورابع يوفّر عليها أجور المواصلات، عدا عن أبطال الأساطير في الحب الذين يلاحقونها من مكان لمكان، بينهم الشبّان الطموحون والمتزوجون ومدراء الإذاعات، حيث تتغنّى بكلمة قالها مدير إذعة يصرخ يوميًا في برنامج صباحي ضد الحكومة "حين تعرفتُ بك شعرتُ بالندم لأنني تزوجتُ باكرًا"، ربما لذلك كانت كلمّا شاهدت زوجته خبيرة التغذية في التلفاز تقول إنها "بشعة، وماجد أجمل منها بكثير".

تجلس منال قليلًا على الأريكة المحاذية لسرير شادية، وغالون الكاز لا يزال في يدها، مستعيدة إلى الذهن بهيجة التي سكنت معها في البيرة قبل عامين، كانت مطلقة ولها من الأولاد خمسة، وأهلها يقطنون السعودية، بينما لا تزال في رام الله "لأجل أولادها"، كما كانت تردد. وهي الأخرى لها من الرجال ثلاثة، واحد لإمدادها برصيد للمكالمات يوميًا، وثان لشراء قوتها ممّا لذّ وطاب من الخضار والفاكهة وأنواع اللحوم مؤونة أسبوع كامل، أما الثالث، للسهر والرحلات الخلابة، وكان يعمل ضابطًا في أحد الأجهزة الأمنية، اعتمدت عبره على "تطيير" الأول والثاني"

من حياتها، حين اكتفت معه بكل شيء!

ربما يبدو الأمر كما قالت إحدى رفيقات منال في السكن مرة على سبيل المزاح "الفتاة التي تعيش وحدها في رام الله تحتاج لعلاقة مع رجل غني أو في السلطة ليسهلّ عليها الحياة ويوفر لها كل شيء"، فواحدة من كل خمس فتيات، وفق إحصاءات منال وصديقاتها تملك مثل ذلك الرجل، وهكذا يبدو النصف الفارغ من كأس أهالي رام الله، حيث قال أحدهم مرة على مسمعها في مقهى زمن بحيّ الطيرة "بنات السكنات كلهن أفيلابل Available أشّر لأي وحدة بتيجلك ركض وين ما بدك..!"

وبين النصف الفارغ من كأس "أهل البلد" وغيرهم حتى من العائلات القاطنة فيها، والنصف المليء الذي يتعامل مع قصص الفتيات "المثيرة" للجدل بطريقة نسبية، ترتبك علاقة الفتيات الجدد برام الله، اللاتي يغريهنّ اكتشاف الحياة بعيدًا عن بيت الأسرة الوادع، وفي ذات الوقت يحاولن جاهدات ألا يكنّ نسخة عن صورة "بنات السكنات" المتداولة، حتى لو بغير التصرّف على سجيّتهن.

لذا لا تنسى منال كلمات السمسار الذي أوصلها إلى شقق للأجرة، في بحثها الثالث عن سكن، حين قالت له إنها ما عادت مرتاحة مع رفيقاتها القدامى، نظرًا لبعض المشاكل "الخاصة"، ليسارع بالقول "أووه بدك تحكيلي.. أنا اللي بعرف قصصهن". ثم في الطريق أشار بيده إلى شقة صغيرة محذرًا إياها من الاقتراب منها، لأنها "مشبوهة".

منال: ماذا تقصد بمشبوهة؟

السمسار: هذه تؤجر بالساعة، فقط لمدة ساعتين أو ثلاث على الأكثر..

- لم؟

- للعلاقات العابرة..

ثم يروي لها قصّة موظفة في مكتبه، عادت يومًا إلى سكنها، وحاولت فاشلة فتح الباب، وبعد نصف ساعة من الانتظار، خرجت رفيقتها في السكن مع شاب سارع نحو المصعد بينما هي كانت تلملم ثوبها المفتوح من صدره، وبررت التأخر في نقاش إغلاق الباب بعبارة "أعتذر لم أسمعك. هذا صديقي جاء ليشرب فنجان قهوة".

وهنا فغرت منال فاه الدهشة، والتشكيك في آن! هي لا تزال موقنة أن هذه التصرّفات "ضربٌ من خيال المبالغة".

عطشت منال. هذه الذاكرة شمسٌ حارقة، ولا تجد لليقين سبيلًا. تضع غالون الكاز على أرضية غرفة شادية، وتجري نحو المطبخ، لتلتقط كأس ماء، تشرب منه بطيئة سريعة، كأنها تحاول تأجيل المهمة التي جاءت من أجلها اليوم، أو الإسراع فيها والرحيل.

وفي طريق عودتها إلى الغرفة، رنّ جرس المنزل، فظلّت ساكنة في مكانها، وتجمدّت عروقها، لترى خيالًا يتحرك خلف نافذة الباب، ثم انزاح إلى ما بعد نافذة غرفتها الفارغة من الأثاث، سوى سرير حديدي في الزاوية.

ظلّت متجمدّة، حتى غاب.. وسريعًا عاد إلى ذهنها الشاب "السايكو Psycho" كما كانت تلقبّه وآمال، التي سكنت معها في حيّ أم الشرايط، في منزلٍ أرضي، بحديقة مجاورة. إذ طالما رأتا خيالًا يتحرّك في الحديقة، ويطرق الباب بصوت لاهث وغاضب "افتحيلي.. بحكيلك افتحيلي.." لتقف مع آمال دون حراك، بين رعب منه، وإحساس بـ"الأمن" لأن المنزل محميّ عبر جميع

نوافذه بالحديد.

وهذا الشخص نفسه، كان لشدة قربه من منزلهما، يسجّل محادثاتهما العادية، ثم يتصلّ بعد منتصف الليل بإحداهن ليسمعها المحادثات، الشيء الذي يزيدهنّ رعبًا.

تعاود قشعريرة الذاكرة النمو في جسد منال الذي تخدّر قبل قليل، بخاصّة حين تذكّرت أنه ذات الشاب ضُبطَ في قضايا مشابهة من الشرطة، في بيت أحد السكان، كان يؤجّر هو الآخر موظفات، اشتكين عليه مرارًا لدى مركز الشرطة، لأنه في أحد أعماله استطاع التسلل إلى منزلهن وإثارة الذعر بين القاطنات، بضحكه الهستيري وكلماته البذيئة والصراخ والقفز المتواصل، ثم خلع ملابسه الداخلية أمامهن، لتتمكن إحداهن من الاتصال بصاحب المنزل الذي أتى بدوره وأحاطه مع بعض الجيران ثم سلّمه للشرطة. وصارت هذه الحكاية، علكة أهل الحي في وقت لاحق، كما أنها السرّ الذي لا يُذاع بتفاصيله الكاملة.

تستعيد منال أنفاسها وتكمل سيرها ببطء نحو غرفة شادية لتتم المهمّة، تنظر الساعة وإذ هي 9:37 دقيقة، وتلحظ فاتورة الكهرباء مطوية وملقاة على طاولة النصف في الصالون، تجلس، تمسك بها وتدير التلفاز.

كانت منال مستلقية على سريرها حين عادت شادية من طولكرم ذات نهار في الشهر الرابع من إقامتهما معًا في ذات الشقة، ودخلت عليها تطالبها بدفع قيمة فاتورة الكهرباء التي كانت تستلمها من أصحاب الشقة، ودون أن تسألها الأولى عن نسخة للفاتورة تقول لها بنعَس "كم مطلوب مني؟" تجيبها "200 شيقل".. تلتقط الحقيبة من جانب السرير وتعطيها المبلغ المطلوب "هيك جاهزين. أوكي.." بريق عيني شادية أمام المال يزداد "نعم.. يلا كملي نومتك".

كانت "الثقة" هي الرابط القوي بين شادية ومنال، خصوصا أنهما صديقتان مقرّبتان، تتبادلان حتى ما يخالجهما من أفكار، وليس فقط يومياتهما وتجاربهما الخاصّة. لكن الأخيرة لم تعلم أن تلك "الثقة" كانت حماقة واستغفالًا لا يغفره القانون الساري في البلد، الشيء الذي عرفته لاحقًا حين كانت دموعها تدوّي في مكتب شرطة رام الله، لا لشيء، بل لأنها خدعتها واستغلتها حتى آخر قطرة. وهل من قانون يعاقب على الكذب؟ هل من آخر يعاقب على استغلال الحب؟ وهل من ثالث يعرف ما معنى أن يخون أحدهم ثقتك؟ العقاب ليس للكاذب، بل للغبيّ لأنه صدّق. هذا قانون الحياة.

فاتورة الكهرباء، والماء، والإنترنت.. كانت تزداد مع كل شهر، ومنال تدفع، والتبريرات دائمًا أن الثلاجة قديمة تسرف، والمدفأة تسحب، و"البويلر (سخان الماء)" ينهب.. و.. و.. إلخ. ولم تشك في الأمر لأن المفترض أن شادية لا تحتاج المال لتسرقه، إذ يصل راتبها لـ 1200 دولار شهريًا، عدا عن المكافآت لقاء المهمات الإضافية.. هههههههههه تضحك منال وهي تتذكر طريقة شادية بلفظ الأرقام.

في اليوم الثاني من السكن مع شادية، قالت لمنال إنها تقبض ما يزيد عن 1000 دولار من راتب أساس ومكافآت من الإذاعة التي تعمل بها، وكانت أول كل شهر تتبضّع في مدينة تختلف عن سابقتها.

ستة شهور من السكن بينهما، لم تُدخل شادية إلى البيت لقمة طعام إلا كانت من صديق أو حبيب لها، ولم تشتر حتى "تي شيرت" جديدًا.. هذا عدا عن الأيام التي كانت تعود فيها إلى المنزل ترفض تناول الغداء أو العشاء لأنها تناولته في الخارج. وأصدقاؤها كثُر، من مدير الفندق والإذاعة حتى الخبّاز وعامل النظافة. لكل منهم مهمتّه ليسعدها، بينما لا يعرف أحد مهمتها

الأساس!

في أحد الأيام عادت منال سعيدة بمشترياتها الجديدة، منها حذاء بكعب عال، ارتدته وتمشت أمام سميحة وشادية، أثنت الأولى عليه بينما قالت الثانية "أنا لا أحب الكعب العالي.. بحب الـ سبورت (الرياضي) بس"، لتتفاجأ منال صبيحة اليوم الثاني بشادية تدخل غرفتها لتريها ملابس العمل ترتدي معها حذاء كعب 10 سم!

هذه المتناقضات والمتتاليات كانت تجتمع رويدًا رويدًا حتى صارت كومة من كذب وغيرة أججّت السّعار للمال شهرًا تلو آخر، لدى شادية.

"أووفت حتى التلفاز لا جديد فيه كما هذا البيت القميء" تقول منال أمام التلفاز، الذي يبث مسلسلًا تركيًا. وتعود بذاكرتها إلى الأيام التي كانت تنبطح فيها سميحة أمامه طوال الوقت بعد عودتها من العمل، تتابع كلّ شيء. وأي شيء. من دون إشعال النور..

منال: دائمًا عتمة.. انا أكرهها!

سميحة: لم أعتد على النور.. لا يوجد كهرباء في غزة..

- كل مرة دراما.. أعطني أي سبب من دون دراما رجاءً هههه

- هههههه كل الحياة دراما!

بين سميحة (45 عامًا) التي ادّعت أنها قادمة من غزة لتؤمن عملًا لها في أحد المكاتب الهندسية وتنتقل إلى رام الله لاحقًا مع ابنتها التي تركتها هناك، وشادية (34 عامًا) التي تدّعي حب الفقراء والمساكين والوقوف مع المضطهدين في برنامجها الإذاعي الذي يبث عبر إذاعة "هيرتز"

المحلية في رام الله، عاشت منال (25 عامًا) في شك دائم بكلامهما وقصصهما اليومية، فما تقوله الأولى تنكره شادية، وما تؤكده الأخيرة تنفيه سميحة بشكل قاطع، وكل منهما تحذر منال من الأخرى.

في الشهر الرابع لمنال مع سميحة وشادية، بدأت الأمور تتضارب على نحو خطير. أصبحت شادية تعود في أوقات متأخرة، أحيانًا تصل الثالثة فجرًا، في هدأة نوم منال، والتمدد العائم لسميحة أمام التلفاز الذي يظلّ معظم الأحيان مفتوحًا على احتمالات السخرية والابتذال في "Moga comedy" وذات مرة استيقظت منال على صوت سيارة تتوقف بجانب الشقة ثم انفتح الباب، في الثانية والنصف من فجر الأربعاء، فخرجت لتصادف شادية في الممر تبدو عليها علامات التعب، مترنحة قليلًا. ومع الأيام عرفت أن سهراتها في الخارج كانت في أحد بارات البلدة القديمة في رام الله، حيث صار اسمه علامة تجارية من كثرة ما تتشدق به. وحين تسأل منال أو سميحة عن السُكر والشراب تجيب شادية "حرية شخصية. كل واحد حر، أنا مأثّر عليكن إشي؟".

"الحرية الشخصية"، كانت المبرر الدائم لكل أعمال شادية، التي بدأت تتكشّف مع الأيام، والعبارة التي تستطيع فيها إسكات الأخريات إذا ما انتقدنها، لأنها فعليًا لا تسألهن عن شيء. و"الحرية الشخصية" هي التي جلبت للمنزل "السُمعة الزفت"، حيث سمعت منال أكثر من مرة تهامس الجيران من حولهن، حتى أن شابًا يسكن بمحاذاتها في الحي، عرض عليها الخروج سويًا للتعرف عليها، وقبلت هي، وقبل أن يفترقا طلب منها الذهاب معه لمنزله كي "يعيشا ساعة من المُتعة" فانقبض وجهها سريعًا ولم تعرف كيف ترد عليه ثم صرخت بوجهه وشتمته، فقال لها "لا تقولي إنك شريفة الآن، والرجال يدخلون ويخرجون من منزلكن". اصفرّ وجهها، وغادرت المقهى سريعًا.

تسأل المذيعة، المغنيّة مايا دياب "هل توجد مشاكل بينك وبين زياد الرحباني؟ لم تأخّر صدور الـ CD المشترك بينكما؟ بمجرد أن سألناه عنك أقفل الخط؟"، ترد مايا بهدوء خبيث، وتضع ساقًا فوق أخرى، ثم تحرك عينيها بالنفي، وابتسامة واثقة صفراء على شفتيها "لا لا.. نحن صديقان مقرّبان جدًا، لا أصدق أنه فعل هكذا! كل يوم نتصل هاتفيًا وأراه يومين أسبوعيًا على الأقل".

- وخلال لقائكما هل يعقل أنكما لم تذكرا موضوع الـCD؟

- لدينا ملايين المواضيع لنتحدّث عنها التي تنسينا إياه..

جلسة مايا ونبرة صوتها وطريقتها في الحديث تشبه تمامًا جلسة شادية أمام أصحاب البيت، "أعتقد أن مايا هي الأخرى كاذبة لأن شادية أيضًا كانت تكذب"، تقول منال لنفسها وهي جالسة أمام التلفاز، مستذكرة المواجهة الأخيرة بينها وشادية في بيت صاحب السكن، حيث أنكرت كل شيء كان يحدث في الشقة لدرجة إنكارها وجود سميحة واستخدام "البويلر" والمدفأة والفواتير و.. و...

تنتفض منال، وتذهب لغرفتها، أو بالأحرى التي كانت غرفتها، وتستأنف سكب الكاز على ما تبقى من أثاث فيها، فعلى ما يبدو لم يسكنها أحد إلى الآن. المكتبة الخشبية الصغيرة فارغة إلى من ذكرى أسماء الكتب المصفوفة فيها أيام منال، والجرارات الخشبية لا تزال مفتوحة كما تركتها منال في الرحيل الدرامي من السكن قبل أسبوعين، والسرير الخشبي على ذات الإزاحة أيضًا، حين فحصت منال الحقائب تحته ما لها وما ليس لها. "الغرفة مهيأة بكل هذا الكم من الخشب، لحريق مذهل" تفكر منال، وتكمل سكب الكاز..

وبينما كانت منال تسكب الكاز على الخزانة التي استعملتها سابقًا كمكتبة في غرفتها، لمحت كيسًا مزركشًا، أعادها إلى بداية الشهر الثاني من السكن مع شادية وسميحة، حيث أحضرت لها فيه الأولى هدية عيد ميلادها الخامس والعشرين.

في ذلك اليوم، عادت منال في العاشرة مساءً، من حفلة أعدتها لها صديقتها في سكن آخر. كانت سعيدة جدًا بتلك المفاجأة، فتحت الكيس فوجدت داخله صندوقًا خشبيًا رأته عبر صفحة في الفيسبوك لبيع "الأنتيك" من الإكسسوارات والتحف. ولشدة سعادتها بما رأت، ولأن صداقتهما كانت في بدايتها، أحسّت كم هي رقيقة وطيبة لتهديها الشيء الذي تفكّر به، ما غاب عن صديقاتها القدامى اللاتي كنّ يهدينها نادرًا وجميعها أشياء لا تنتمي إليها، ومجاملة كانت تقول "شكرًا جزيلًا.. هدية رائعة".

وهذا الصندوق هو نفسه الذي رمت به منال أمام شادية حين كان الرحيل الأخير من السكن، ومن كلّ رام الله.. قالت لها في حينه "يذكّرني بحماقتي.. خذيه كي تتذكرّي بشاعتك". الكلمات التي لم تهز رمشًا لشادية. لقد اعتادت الكذب حتى صدقّت نفسها.

تتجاوز منال الكيس كما تتجاوز الذاكرة، ويشتد نهمها لمشهد الحريق كلمّا تصاعدت رائحة الكاز، حتى إذا رأت في الزاوية ورقة مطوية، تناولتها وفتحتها، كانت صورة لها مع شادية وسميحة في الثلج، خلال المنخفض النادر الذي ضرب فلسطين. استعادت شريطًا آخر من الذكرى، حين ظلت منال وشادية محجوزتين في رام الله ولم تعودا إلى قلقيلية أو طولكرم، أما سميحة التي طالما ادّعت دراستها في الخارج الأوروبي، تكشّفت كذباتها أمام انبهارها الذي بدا بشكل صارخ أنه الأول، لتمازحها شادية "ما الأجمل، ثلج النرويج أم رام الله؟" مع غمزة لمنال التي قهقهت بصوت عالٍ "أكيييد رام الله.. هيا نلعب ونستمتع"، ولأن هاتف سميحة النقال كان

بدائيًا، أخذت الصورة بهاتف شادية، ثم طبعت منال ثلاث نسخ لكل واحدة منهن، لتحتفظن بتلك اللحظات التي سرعان ما تنتهي حين تعود سميحة إلى غزة.

الثلج، هو نفسه ما يعيد الذاكرة نحو "أليكسا"، المنخفض الذي ضرب البلاد وعجّت به صفحات الفيسبوك و"الانستاغرام" سخرية وتخوّفًا ودعوات للمساعدة وهواتف الطوارئ. في حينه كانت منال في سكن بحيّ الطيرة، يبعد مسافة كيلومترات عن أول سوبرماركت أو صيدلية. انقطعت عنه الكهرباء ثم الماء. ثلاثة أيام من دون ماء. الصحون متراكمة دون تنظيف. أكياس القمامة فوق بعضها البعض. والأسوأ في هذه المعادلة، جاء موعد الطمث عند منال، التي احتاجت تنظيف نفسها حين استيقظت فجأة معه، صباح اليوم الثاني من انقطاع المياه. وكانت وفاء، موظفة البنك التي تسكن معها من نابلس، ذهبت بسيارتها واشترت علب المياه، وهي الوحيدة آنذاك التي ملكت الماء، فطلبت منها علبة على الأقل لتنقذ نفسها حتى إذا توقف تساقط الثلوج خرجت إلى السوبرماركت واشترت ما يلزمها لتعيد العلبة لوفاء. لكن الأخيرة رفضت المساعدة، وأصرّت بالقول "أنا تعبت لجبتهم ما بقدر أعطيكي!"

- بشتريها منك!

- آسفة ما بقدر..

تصميم وفاء أمام الموقف المحرج والمذلّ في آن لمنال، صاعد من آلامها، كما صاعد من حدّة الحديث بينهما، ولم تستطع سوى التكوّم على نفسها في الحمام والبكاء، وتنظيف نفسها بالورق ثم شرب حبات من "البنادول" المنوّم، كي تنام ولا يتكرر احتياجها للماء أو الحمام أو تناول الطعام حتى، لتستيقظ في اليوم التالي على عَودة جمانة، التي أسعفتها بالماء. وهي أحد المآثر الجميلة التي تتذكرها منال في السكنات، وما زالتا صديقتين مقربتين. وكانت جمانة حذرتها سابقًا

من الثقة المطلقة بشادية، إذ في بداية علاقتهما، حفظت منال اسم الأخيرة بـ"صديقتي اللطيفة". وحين أخبرت جمانة بعد شهور بأعمال شادية السيئة سخرت بالقول "أليست هذه اللطيفة؟".

تقول جمانة "لا تثقي دائمًا بالأشخاص لمجرد لطفهم. فأولئك اللطيفون في اللقاءات الأولى بشكل مبالغ به، سيكونون أول من يخذلك لاحقًا حين تقعين".

يفوح الكاز من كل بقعة خشبية في غرفتي شادية ومنال، أصبحتا جاهزتين للاشتعال. تُخرج منال الولّاعة من جيبها، ثم تشعل سيجارة، وتجلس على الأريكة المقابلة لغرفتها، مستذكرةً كيف أخرجتها في بداية السكن مع شادية وسميحة بصعوبة من غرفتها، حتى أنهن استنجدن يومها بجارهن.

كما تحاول منال استرجاع صورة الفتاة التي سكنت قبلها في الغرفة. ومن دون أن تسأل حينها عن سبب تركها السكن، تبرعت شادية بالحديث "تخيّلي.. عدتُ من العمل أبكر من المعتاد في أحد الأيام، وإذ بشاب داخل غرفتها، فادّعت أنه أخوها، وحين أجبرتهما على إظهار هوية كل منهما الشخصية تبيّن أنه صديقها. فتوسلت ألا أقول لأحد وهي ما زالت بعد طالبة جامعية.. قلتُ لها: من دون نقاش، اتركي السكن!".

"آخ يا الله!" تنفث دخان سيجارتها "الفايس روي" وتقول في استحضارها للمشهد "الله أعلم ماذا ألّفت عني بعد تركي السكن"، مستدركةً "كلّ الحارة باتت تعلم بما جرى بعد قدوم الشرطة".

في يوم الرحيل الأخير من رام الله، عادت منال إلى البيت، لتفشل في محاولة فتحه مرات عديدة. وعندما اتصلت بشادية، قالت لها بالحرف "ادفعي الأجرة والفواتير لتأخذي أغراضك".

كان الشهر السابع تجاوز يومه الخامس عشر، من دون أن تدفع منال بعد أجرة السكن وفواتير

الكهرباء والماء والإنترنت. فشادية هي المسؤولة أمام أصحاب السكن الذين يقطنون في شقة فوقه، فعقد الاستئجار باسمها. لكن منال ماطلت عمدًا حيث احتالت شادية عليها وأخذت نحو 400 دولار من غير حق، لذا قررت ألا تدفع لها فلسًا.

طرقت منال الباب كثيرًا وشادية متمددة في الداخل أمام التلفاز على الأريكة، لا تستجيب. صارت تطرق بعنف، وتصرخ بأعلى صوتها "افتحي يا شادية.. أريد أغراضي.. افتحي يا شادية وإلا سأحضر الشرطة..".

سمع الجيران الصراخ، فجاءت أم رشدي وأبو سمحان، والموظف في شركة الاتصالات، عاصم، الذي يسكن مقابلهم. وشادية مصرّة ألا تفتح.

لحسن حظها، كان مركز الشرطة بجانب السكن، فتوجهت منال غاضبة مسرعة إليه، متناسية محاولات تهدئتها من قبل الجيران الذين حذرّوها من الشرطة، لأن الذهاب إليها في مجتمعنا يعتبر "فضيحة"، لتصرخ بوجههم "هذه الشرطة.. القانون.. ليست بيت دعارة لتشوّه سمعتي..".

وفي مكتب التحقيق، الطابق الثاني من مركز شرطة رام الله، بدأت منال سرد حكايتها، وبعد أسئلة عدة حول التفاصيل، صارت تبكي، والشرطي يهدئ من روعها دون جدوى. لتجري عبر الهاتف مباحثات بين شادية والشرطة عبر الهاتف، فارتبكت شادية وأنكرت الأمر. لم تكن تتوقع أن تستنجد منال بالقانون وهي المتهوّرة المتسرّعة. فوعدتهم بأن تفتح الباب.

ذهبت منال والشرطة إلى السكن، على مرأى جميع سكان الحي، بخاصّة أصحاب السكن، الذين تغريهم الدولارات، ولا يهتمون بصدق أو كذب أو "سمعة زفت"، حتى أن لقب المالك بين سكان الحي كان "جوني جوع" لشدة حبه للمال. وأصبح هناك سبب يبتزون به شادية لكي يزيدوا

الأجرة مجددًا بعد ترك منال السكن.

أخذت منال أغراضها بمساعدة الشرطة وغادرت بعد أن صرخت في وجه شادية "ستنالين عقابك.. مال الحرام مرض بجسمك .. مرض بجسمك طول العمُر..".

الكلمات الأخيرة بينهما ظلت في ذاكرة منال، أما صورة شادية، فكان وجهها أصفر حين ذاك، تبدو على عينيها ملامح الإرهاق، كأنهما محفورتان في وجهها الحاد كوجه "بينوكيو".

لم يكن الأمر سهلًا على منال، لكنها قررت قبل تركها رام الله، أن تنتقم لنفسها، ليس من شادية، بل منها وبهيجة ووفاء وتمارا وسميرة وغيرهن غيرهن.. منذ سنوات الجامعة. ربما كان قدرها ألا ترتاح في سكن.

ولأن شادية تملك من خصال جميعن شيئًا، كانت ختامهن الفظيع، الذي أجج النقمة في دم منال، التي قررت إحراق السكن، بعد أسبوعين من خروجها.

نسيت شادية مفتاح الباب مع منال، ولا تتوقع الأخيرة أن تبدل شادية قفل الباب خلال هذه الفترة، لأنها مسافرة للمشاركة في مؤتمر إعلامي بتركيا، كما علمت من صفحتها في موقع "فيسبوك"، الذي تتابع عبره جميع تحركاتها. اعتادت شادية كتابة كل شيء. ماذا تأكل وماذا تلبس وإلى أين تسافر وتذهب وأسماء المقاهي التي ترتادها، والأصدقاء الجدد في حياتها، إضافة إلى الأفلام والمسلسلات التي تشاهدها. صفحتها دليل مفتوح ومتاح للجميع عنها، عن كل شيء تعمله في العلن، لكنها لا تستطيع الإخبار بنواياها السيئة التي تضمرها للعباد!

استغلت منال نهاية الأسبوع، حيث جارتهم أم رشدي تزور ابنها في بيرنبالا، إذ اعتادت العائلة على الاجتماع عنده في كل خميس، وأصحاب المنزل كعادتهم، يغلقون الباب بالمرصاد، فلا أحد

يسمعهم، ولا يسمعون أحدًا.

وبالفعل، لم تغير شادية قفل الباب، لينفتح بسهولة أمام منال، التي دخلت دون أن يلحظها أحد، كما تخطط للخروج بعد الشعلة الأولى، دون أن يلحظها أحد.

كان كل ما في البيت هادئًا، والأنوار مطفأة ما عدا المطبخ. كعادتها شادية، نسيت أن تطفئه. الشيء الذي طالما فعلته تمامًا تمارا، التي سكنت معها في عامها الأول للعمل برام الله. وهي من جنين، وكانت تعمل في قسم العلاقات العامة في إحدى الشركات. و"العلاقات العامة" مصطلح قابل للتأويل معها. فشأنها شأن شادية في التقرّب من الشبّان وإيهامهم بالحب للحصول على ما تريد. فالشاب الأول الذي أحبته، أو بالأحرى مثلت عليه الحب، حصلت منه على "IPhone5 " ثم قالت له وداعًا. والثاني كان على علاقة بمديرها، فتوسّط لزيادة راتبها، وحين حصلت على ما تريد توقفت عن الاستجابة لمكالماته.

أما الكذب، فهو السّمة الثانية المشتركة بين شادية وتمارا. كانت الأخيرة تشتري الملابس وحين تعرضها أمام الشابات اللاتي يسكنّ معها، بينهن منال، تضاعف سعرها مرة أو مرتين، رغم أن بعض القطع كانت تكشف عن بخسها عبر نوعية قماشها وماركتها. كما كانت تكذب باسم المطاعم والمقاهي التي ترتادها كي تُظهرَ أنها لا تأكل سوى من "الغالي والراقي"، بينما كانت ضيفة أصدقائها ولا تدفع من جيبها شيئًا، حيث التقت منال ذات صُدفة بجارة لها في جنين، قالت إنها تعطي نصف راتبها لعائلتها شهريًا، تلك العائلة التي طالما تشدّقت بأنها تملك فيلا في أحد أحياء جنين "الراقية"، لتكتشف منال أيضًا أنها طُردت من بيتها في أحد المباني السكنية لعدم التزامها بالأجرة عامًا كاملًا!

لماذا تكذب النساء اللواتي يسكنّ رام الله؟ ألهذه الدرجة تبدو رام الله زائفة ليحاكين زيفها؟ هل

يؤثر ذلك على ذوقهن في الرجال؟ بالأحرى هل يتهافتُ الرجال على النساء اللواتي لا يرتدين أو يأكلن أو يسكنّ إلا "الغالي"؟ حتى سكنُها في حي الماصيون كان من أجل "السّمعَة الراقية".

يعصفُ ذهنُ منال الآن، في لحظة تاريخية بالنسبة لها، حول ما رأته منها. فكذبها الذي لم يكن ضارًا إلا بها بات يُضرّ بالآخرين، حيث كانت تمارا تنقل كلامًا مسيئًا على لسان منال لهند، التي كانت تسكن في نفس الغرفة مع منال. وحين المواجهة الثلاثية بينهن، علا صوتُ تمارا وصارت تهدد بمسلّحي مخيم جنين من أصدقائها، الذين سيضربون بيد من حديد، لدرجة أن هند صدّقت كل ما قيل عنها. ولمخيم جنين قصة أخرى معها حيث تباهت في أحد الأيام حين طلب منها مدير عملها السابق في أحد التلفزيونات المحلية أن ترتدي ملابس كانت خُصصت لها عن طريق التلفزيون في برنامج يعالج القضايا المتعلقة بحقوق النساء في فلسطين، في برنامج آخر يناقش موضوعات اقتصادية، تحججت أمامه كما أخبرت الشابّات في السكن، بأنها تبرعت بالملابس جميعها للفقراء في المخيم، الشيء الذي تفعله سنويًا كما تقول، من أجل "تجديد" خزانتها والبقاء دومًا على اتصال بكل ما هو جديد بعالم الموضة.

هههههه.. ثم تضع منال يدها على فمها كي لا يسمعها أحد صدفة، فتمارا ارتدت في اليوم التالي تمامًا لتركها العمل في التلفزيون، أحد الأثواب تلك، التي سجلّت فواتيرها مضاعفة علنًا أمام عيني منال وهند حين تسوّقن بين محال رام الله، في أول عمل لها بمجال العلاقات العامة، الشيء الذي تكرر مع تالي الأيام. ولم تقم بتزوير فواتير الملابس فقط، فـ"الدنيا صغيرة" لدرجة أن اسمها ورد في حوار بين منال وكوافيرة في أحد صالونات الطيرة، لتخبرها الأخيرة أنها كانت تزوّر فواتير تسريح شعرها وصبغه وقصّه إضافة للماكياج المخصص للبرنامج، وهذا جرى بعد شهرين تمامًا من ترك منال للسكن، لتصاب بالدهشة!

تفكر الآن "لم يكذب الذي قال يومًا المرأة الـFake مشاعرهاFake" فإذا كان شعرها مصبوغًا وعيناها "لينسيز (عدسات لاصقة)" وأظافرها مُركّبّة حتى رموشها صناعية، ولم ترها حتى الشابات معها في السكن سوى مرات معدودة على الأصابع من دون مكياج، فهي تكره بشرتها المليئة بالبثور لدرجة أن "الفاونديشن" لا يفارقها، ما الذي تبقى من الداخل صالحًا بعد كل هذا الزيف؟ "لا أعلم" تجيب منال نفسها، قبل أن تدوس على سيجارتها الثانية بفكرة "ربما ليس جميع النساء مثلها، فأنا أعرف نساء يصبغن ويستخدمن اللينسز لكنهن رائعات من الداخل ولا يؤذين حشرة.. وربما لأسباب أخرى تخفي النساء حقائقها وربما كي لا تكشف عن مشاعر معيّنة".

"وقت فلسفتك؟!" يقول صوت داخلي آخر في رأس منال، تبتسم ثم تنهض عن الأريكة لتبدأ الحريق..

قررت منال البدء من المطبخ، عن طريق فتح أنبوبة الغاز وترك عيون الغاز مفتوحة دون إشعال أي منها، ثم العودة إلى غرفة نوم شادية، الأقرب إلى الباب، فيكون هروبها في اللحظة المناسبة أمرًا يسيرًا. وفي الطريق إلى المطبخ، يرن هاتفها، فترتبك وتبحث عن زر "صامت" كي لا يُسمع الرنين.. تنظر الرقم، إنها صديقتها عواطف.. "أففت ماذا تريدين الآن يا عواطف" تقول منال في سرّها، ولا تجيب. ثم تهاتفها عواطف مجددًا، دون أن تتلقى ردًا.

بعد ثوانٍ، تصل رسالة نصيّة من عواطف كتبت فيها "اليوم رأيت رامز وشادية يشربان القهوة في مقهى في نابلس.. تخيّلي!".

تقف منال، تشدّ على أسنانها في مونولوج داخلي صاخب، فتتذكر كل شيء في لحظة. فرامز هو الحبيب السابق لمنال، الذي أخبرت شادية عنه في لحظة فضفضة نسائية، كانت الأخيرة تخبرها عن عشّاقها، أولّهم الذي لم تتزوجه لأنه مقدسي، والثاني تتردد في الزواج منه لأنه

مريض بالسرطان، والثالث والرابع والخامس.. تطول قائمة شادية أو فلنقل "أنجلينا جولي"! بينما منال لم يكن في قلبها سوى رامز، الشخص الذي أحبّته والذي كرهته أيضًا، وحدثت شادية عنه بمزاجيها العاشق والحاقد. تتذكّر منال جيدًا كيف قالت لشادية "أنتما أصدقاء، أليس كذلك؟" فأجابتها "قطعًا لا.. لقد أضافني لقائمة أصدقائه في فيسبوك ليرسل لي صوري، وبعدها حاول الحديث معي أكثر من مرة لكنّي (زبَلتُه).. هههه يظن أنني يمكن أن أحب شخصًا أصلع وبأسنان مقرفة!!".

- غريب أنك انتبهتِ لكل ذلك، ربما لأني أحببته لم أجد خللًا في شكله!

- نعم، ألا يقولون "الحب أعمى"

الآن يجلسان معًا. "هنيئًا لهما فليقصص عليها بطولاته ولتقرئه كذباتها والناس الذين خدعوها، منهم أنا!" تقول منال، وترتبك قبضتُها التي ما زالت تشدّ على هاتفها؟

تتوتر أكثر حين تصل المطبخ، فتشعل سيجارة ثالثة، وتمشي ذهابًا وإيابًا، تستغني عن فكرة الغاز، ثم تعود إلى الغرفة التي كانت تسكنها، وتلقي السيجارة فيها، ثم تشعل أعواد الكبريت وتلقيها بسرعة في كل مكان، ولا تخرج من الغرفة حتى تلمع النيران في عينيها، تبتسم، وتنتقل إلى غرفة شادية، وتكرر الأمر، على الأثاث الخشبي وبين كتبها وعلى غطاء السرير، وعند خروجها تذكر مفتاح الباب "يا إلهي.. أين المفتاح؟ أينه؟" تجري عائدة إلى الصالون، تفتش عند طاولة التلفزيون، ثم الجرارات، وترنو إلى المطبخ.. لا شيء. ضاع المفتاح. تفتش في الغرفة لكنها لا تستطيع الولوج إلى أبعد من بوابات الغرف، فالنيران تأكل كل شيء، والدخان يكاد يخنقها، تفتش ثيابها ومحفظتها.. "أخيرا ها هو" تجد المفتاح في جيب جاكيتها، تجري نحو الباب، ثم تتركه خلفها مفتوحًا، وتهرب، تجري حتى نهاية الممر الخارجي لأصحاب المنزل، ثم إلى

الشارع الرئيس، وفي انتظارها للتاكسي، تلمح أحد الجيران وقد تنبّه إلى الدخان المتصاعد من السكن، تستقل تاكسي خاصًا، وتغادر المكان. يقول السائق "إلى أين؟" تجيب "إلى سينما القصبة.."، وتلتفت إلى النافذة بارتياح، كأنّ شيئًا لم يكن، فكل ما ينتهي ويزول، كأنه لم يكن.